حكايات عن جزيرة فاروس

محمد جبريل

حكايات عن جزيرة فاروس

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

حكايات عن جزيرة فاروس

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٣٤٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

١٩٣٨	١١
أبي	٢١
قاضي البهار	٣٩
بحري	٤٥
أيام في المعهد الديني	٦٣
الإسكندرية مدينة أوروبية	٧٣
دنيا جديدة	٧٩
عالم من القراءة	٨٥

«هناك في وسط البحار التي تعوم فيها مصر ... قامت جزيرةُ فاروس التي يعرفها الجميع.»

هوميروس

الماضي مهما كان مرًّا، فهو حلو.

استمعتُ إلى هذه الكلمات — للمرة الأولى — من أستاذنا يحيى حقي. وأعتقد أنها تَصْدق — إلى حدٍّ كبير — على بعض الفترات في حياتي، وبالذات فترة التهيؤ لاستقبال الشباب، وفترة التهيؤ لوداعه.

أُعاود النظر إلى تلك الفترة، داخل الإطار الذي صنعه توالي الأعوام. شكَّلَت بتكويناتها وجزئياتها وألوانها وظلالها لوحةً، ربما وجد فيها المتأملُ شيئًا يستحق المناقشة.

الهدف من كتابة هذه الكلمات ليس روايةَ سيرةٍ ذاتية، ولكن مجرد تسجيل بعض الملاحظات حول أحداثٍ حقيقية، ما حدث بالفعل، فلا أقعُ في شِراك الخيال، ذلك القرين الذي يُرافق المبدع في لحظات الكتابة.

أملي أن تُشكِّل هذه الملاحظات — في مجموعها — شهادةَ مواطن مصري، من أبناء الجيل الذي استقبل الحياة حول سِنِي الحرب العالمية الثانية، وشَهِد، وعايش عشراتِ الأحداث في تاريخ بلاده، والعالم.

محمد جبريل، ٨ ديسمبر ١٩٩٢م

١٩٣٨

وُلدتُ في السابعة صباح الخميس ١٧ فبراير عام ١٩٣٨م. قال لي أبي إني تبوَّلتُ — لحظة ولادتي — في يدَي الطبيب. اسمه الأول أنطون، ولا أذكر بقية الاسم. وكانت ولادتي في البيت نفسه الذي شهد طفولتي وصباي وشبابي الباكر (٥٤ شارع إسماعيل صبري) حتى غادرتُ الإسكندرية في نهاية الخمسينيات بحثًا عن فرصة عمل بصحف القاهرة.

كان قد مضى عامان على إنشاء كورنيش الإسكندرية. أنشأه إسماعيل صدقي عام ١٩٣٦م بامتداد ٢٦ كيلومترًا من رأس التين إلى المنتزه.

وقبل مولدي بستة وعشرين يومًا، بالتحديد في ٢٠ يناير ١٩٣٨م، تزوَّج الملك فاروق من فريدة ذو الفقار. وصف العقاد ذلك بأنه تعبيرٌ عن ديمقراطية الملك. وكان «حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول — أعزه الله — قد تولَّى عرشَ مُلْكِه السعيد» في ١٥ مايو ١٩٣٧م، وإن أدار الحكمَ — منذ وفاة الملك فؤاد، حتى بلوغ فاروق السنَّ القانونية — مجلسُ وصاية مؤلَّف من الأمير محمد علي، وعبد العزيز عزت باشا، ومحمد شريف صبري باشا.

وُلد فاروق في الحادي عشر من فبراير ١٩٢٠م. أتذكَّر أغنيةً مطلعُها: أهو جانا حداشر فبراير. ظلَّت تُؤدَّى في مناسبة عيد ميلاد الملك، حتى قيام ثورة يوليو. وارتقى عرش مصر — عقب وفاة أبيه الملك فؤاد — في ٢٨ أبريل ١٩٣٦م. وأمُّه هي صاحبة الجلالة الملكة المعظَّمة نازلي. وُلدت بالإسكندرية في ٢٥ يونيو ١٨٩٤م، واقترن عزُّها — يعني تزوَّجت — بالمغفور له حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد المعظَّم في ٢٤ مايو ١٩١٩م. وأخواته حضرات أصحاب السمو الملكي الأميرة فوقية (ابنة الملك فؤاد من الأميرة شويكار، زوجته الأولى)، والأميرة فوزية وُلدت في ٥ نوفمبر ١٩٢١م، والأميرة فايزة وُلدت في ٨ نوفمبر ١٩٢٣م، والأميرة فائقة في ٨ يونيو ١٩٢٦م، والأميرة فتحية في ١٧ ديسمبر ١٩٣٠م. في

العام نفسه، أُعلنت خطبةُ صاحبة السمو الملكي الأميرة فوزية إلى حضرة صاحب السمو الإمبراطوري شاهبور محمد رضا ولي عهد الإمبراطورية الإيرانية. وتعطَّف جلالةُ الملك؛ فأمر بأن تُوضع سيارة جلالته الخاصة من طراز مرسيدس، والمهداة إليه من الهر هتلر، تحت تصرُّف رئيس البعثة السامية الإيرانية، في سفره إلى القاهرة، وتنقلاته فيها. وأُجريت عمليةُ ترميم كاملة في قصر أنطونيادس بالإسكندرية، حتى يستقبل الوفد الإيراني المرافق صاحب السمو الإمبراطوري ولي عهد إيران، في حفل عقد خطبته على صاحبة السمو الملكي الأميرة فوزية. ووُلدت في السابع عشر من نوفمبر: فريال، كُبرَى كريمات الملك فاروق. واحتفاءً بهذه المناسبة، وزَّع السيد محمد بدراوي عاشور كسوةً على ثلاثة آلاف فقير، فضلًا عن إطعامهم.

في اليوم السابق لمولدي (١٦ فبراير ١٩٣٨م) نشرَت مجلة «ماتش» الفرنسية تحقيقًا عن قناة السويس، بمناسبة انتقال القوات البريطانية من القاهرة والإسكندرية إلى القناة. قالت: يبدو لنا أنه انتقالٌ لا رحيل. وتوصَّل رئيس وزراء مصر محمد محمود باشا — في مباحثات أجراها في لندن — إلى اتفاقٍ تامٍّ مع الحكومة البريطانية على مسألة إنشاء الثكنات. كما أعلن «بقوة كلَّ ما يُساور المصريين من قلق بشأن الحالة في فلسطين». وجاوز حضرة الصاغ محمد نجيب (أول رئيس للجمهورية فيما بعد) امتحانَ كلية أركان الحرب. وتخرَّج جمال عبد الناصر، والعدد الأكبر من قيادات الضباط الأحرار من الكلية الحربية، جيل جديد من الضباط ينتمي إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا كأثر إيجابي لتوقيع معاهدة ١٩٣٦م. وكان الجيش المصري يتألَّف من نحو ستمائة ضابط و٢٥٠٠ جندي. يُعفَى من الجندية مستخدمو الحكومة الداخلون في هيئة الحكومة، وبعضُ مستخدمي الحكومة الآخرين، وأولاد الضباط، وأولاد العُمَد، والمشايخ العاملون والمتقاعدون، بشرط أن يكونوا قد خدموا عشر سنوات، ولم يُفصَلوا لسببٍ ما. كذلك إخوة الضباط، الموجودون بالخدمة، والمحالون على الاستيداع، والأبناء الوحيدون، وأكبر أبناء الأب الميت أو العاجز عن التكسُّب، وأكبر أبناء الأرملة أو المطلقة، وكل مَن يساعد في نفقة واحد أو أكثر من أجداده، والأخ التالي لأخيه المجند بالقرعة، وطلبة المعاهد الدينية، وخريجو الجامعات، وبعض المدارس الصناعية، وبعض الموظفين الدينيِّين، فضلًا عن وسيلة أخرى، غريبة، للإعفاء من التجنيد، وهي دفع بدل نقدي يتراوح بين ٢٠ إلى مائة جنيه لكل مطلوب للتجنيد. وكانت المحصلة النهائية لتلك الإعفاءات أنه لم يكن يدخل الجيش إلَّا أبناءُ الأُسَر المُعدَمة، بما يشكِّل جيشًا لمرافقة كسوة المحمل، لكنه أبعد ما يكون صلاحيةً للقتال. ومن بين استعدادات القوات

المسلحة المصرية للحرب، صدرت الأوامر إلى الأورطة الثانية مشاة بتوزيع قواتها على خزانات ومنشآت وكباري الوجه القبلي. كما رابطت قوات عند خزان أسوان، وتمَّ تحصين السد، ومنع مرور الأفراد والمركبات والسيارات على الخزان، فيما عدا موظفي إدارة الخزان الذين حصلوا على تراخيص تُخوِّل لهم المرور إلى مكاتبهم. واستوردت حكومة محمد محمود باشا مليون كمامة للوقاية من الغازات، تحسُّبًا لتطورات الأحداث المقبلة. وفي ١٤ سبتمبر تفقَّد الملك خطوط الدفاع في الصحراء الغربية.

في العام نفسه، رفعت أسرة الزعيم أحمد عرابي مذكرةً إلى رئيس الوزراء محمد محمود، تُطالب بردِّ أملاك عرابي التي صادرَتها الحكومة في عام ١٨٨٢م. وأُزيح الستار — في أغسطس — عن تمثال سعد زغلول المطل على الميناء الشرقية، والذي أصبح — فيما بعد — من أهم معالم المدينة (أذكِّرك بالسمان والخريف وميرامار لأستاذنا نجيب محفوظ). وأصدر حزب الوفد قرارًا بفصل الدكتور أحمد ماهر لتضامنه مع النقراشي، وعدم اعترافه بقرار فصله. وحدثَت محاولةٌ اعتداء على مصطفى النحاس، وخرجت المظاهرات تهتف بحياة زعيم الوفد، وتتَّهم محمد محمود بمحاولة اغتياله. وأعلنت جماعة الأخوان المسلمين أهدافها السياسية، بعد أن كان نشاطها مقصورًا على الاجتهاد الديني. وبدأت الحكومة في إعداد مشروع قانون لهيئة الصحافة «ينظِّم ما لها ولرجالها من حقوق وامتيازات، وما عليها من تكاليف وواجبات». وفي الأول من مارس ١٩٣٨م أعلن تأسيس الاتحاد العام لنقابات عمال المملكة المصرية من ٣٢ نقابة، برئاسة عباس الحليم. ثم أُسندت رئاسة الاتحاد — بعد شهر واحد — إلى محمد الدمرداش الشندي، وهو عامل فني من عمال النسيج بالإسكندرية. ونظَّم الاتحاد العام للعمال في مايو مظاهرةً هائلة طافَت شوارع القاهرة، مارة بقصر عابدين ورئاسة مجلس الوزراء ووزارة التجارة والصناعة ومجلس النواب ودور الصحف إلخ. وتظاهر الطلبةُ كي تكفل لهم الحكومةُ فرصَ العمل. وشهد العام إنشاء الكليات الأولى بجامعة فاروق الأول: الآداب والتجارة والحقوق. وكان عدد المتعلمين — مَن يعرفون القراءة والكتابة — ١٠٪ من مجموع المواطنين. أما عدد حملة الشهادات — بما فيها الشهادة الابتدائية — فكان نصفًا في المائة. وأدرج في ميزانية الأزهر مبلغ خمسة آلاف جنيه لنشر الثقافة الإسلامية في البلاد النائية، والعناية بالبعثات الوافدة إلى الأزهر، ومنح مسلمو نيويورك ٨٠٠ جنيه من هذا الاعتماد لإعانتهم على إنشاء مسجد. وكان شيخ الجامع الأزهر هو فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي. أما رأس طائفة الأقباط الأرثوذكس فهو حضرة صاحب الغبطة الأنبا يؤانس التاسع عشر

بابا وبطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة والخمس المدن الغربية «بنتا بوليس» وسائر أفريقيا والشام.

وارتفع فيضان النيل — في أغسطس — إلى حدِّ الخطر. وصدرَت الأوامر إلى مهندسي الري بالمبيت على جسور النيل، وأن يكون كلُّ مهندس مسئولًا عن مسافة قصيرة من الجسر، فضلًا عن أعمال تقوية الجسور ووقايتها. وفي سبتمبر بلغ فيضان النيل مرحلةَ الخطر. سجَّل مقياس الروضة ٢٤ ذراعًا وعشرة قراريط. أما الحد الأقصى — قبل تحقق الخطر — فهو ٢٤ ذراعًا. أما الدخل القومي، فقد بلغ حوالي مائتي مليون جنيه، أي حوالي ١٢جنيهًا للفرد في السنة. وأوردت الإحصاءات أن سبعةَ ملايين ونصفَ مليون مصري يَحْيَون — في المتوسط — بجنيه أو نصف الجنيه في الشهر، وأن عدد باعة اليانصيب في القاهرة وحدها جاوز الثلاثةَ آلاف. وتعدَّدَت إضراباتُ طلبة الكليات والمعاهد العليا طلبًا للتوظف أو تحسين الرواتب. كان عدد سكان مصر ١٦,٣ مليون نسمة، منهم ١٤ مليونًا ونصف المليون مصابون بالتراكوما، وحوالي ١٢ ألفًا من المكفوفين، وبلغ عددُ مرضى السل حوالي نصف مليون مريض، مات منهم أثناء العام ٤٠ ألفًا. وأدلى وزير المعارف ببيان، أكَّد فيه أن ٧٠٪ من تلاميذ المدارس الأولية مصابون بأمراض صدرية، نتيجة الجوع. وكان أكثر من ١٠ ملايين مصابين بالبلهارسيا والأنكلستوما، وبلغَت نسبة الوفيات ٣١ في الألف، واعتمدت وزارة الصحة مبلغَ ٩٠٠ جنيه لإنشاء ١٥ حنفية مجانية للمياه بمدينة القاهرة. وأصدرت وزارة المالية — لأول مرة — قرارًا بمنع تصدير الذهب من مصر إلى الخارج. وأعلنت سكك حديد الحكومة المصرية عن امتيازات موسم الأقطان (١٩٣٨-١٩٣٩م) تضمن: الأمان، السرعة، رخص الأجور، لمواجهة الطلبات، وتَعِد بأغطية جديدة من المشمع لوقاية الأقطان من الحريق والأمطار أثناء النقل. وكان ثمن الجريدة خمسةَ مليمات، وصفحاتها من أربع إلى ثماني صفحات، وموادها — حتى العناوين — بالجمع اليدوي. ولأن عربات الحانطور كانت وسيلةَ ركوب رئيسية في المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية؛ فقد كان لها تعريفة ركوب تبدأ بثلاثة قروش ونصف قرش للكيلومتر الواحد، وتَصِل إلى ٨٥ قرشًا لليوم الكامل. أما أجور الحمير فكانت ١٢ قرشًا لليوم، من شروق الشمس إلى غروبها. وأما التوجه إلى خارج المدينة — مع عدم العودة — فكانت قيمته ١٨ قرشًا. وأعلنت محلات سمعان صيدناوي عن بيع القميص البوبلين الرجالي بستة عشر قرشًا، وحذاء السيدات ماركة «درمانا» بخمسة وخمسين قرشًا، والمايوه — كان اسمه بدلة البحر! — بثمانية عشر قرشًا. ونشرت الصحف إعلانات قضائية، من مثل بيع منقولات منزلية

ملك فلان الفلاني وفاءً لمبلغ ٨٠ قرشًا كطلب فلان أفندي علَّان التاجر، فعلى راغب الشراء الحضور. واخترع المجاهد الغيور حضرة عباس أفندي عبد الرحمن وسيلةً ناجعة لمحاربة المنكر؛ فعمد إلى تصوير نواحي المنكر في لوحات خاصة، يُصدرها تباعًا، ويوزِّعها على الجمهور بثمن زهيد، لا يكاد يعدل شيئًا من قيمتها العملية في تهذيبِ النفوس، وبثِّ مكارم الأخلاق. وكانت لوحته الأولى في مكافحة الخمر، وعنوانها «من الحانة إلى المسجد»، وقد تشرَّف برفعها إلى الأعتاب الملكية فحازت القبول السامي. وأُقيم — لأول مرة في تاريخ الحركة النسائية — مؤتمرٌ نسائيٌّ عربيٌّ لمساندة الشعب الفلسطيني، حضره وفودٌ من عدة أقطار عربية، من بينها فلسطين. ولعله يكفي للتدليل على فقدان الإحساس الحقيقي بفداحة المأساة، أن برنامج المؤتمر كان يشتمل على بعض المحاضرات التي تعبِّر عن تعاطف النساء العربيات مع القضية الفلسطينية بعامة، والمرأة الفلسطينية على وجه الخصوص. وكان يشتمل — في الوقت نفسه — على زيارة لأهرام الجيزة وحديقة الحيوان واستديو مصر للتمثيل والسينما والمتحف المصري ودار الآثار المصرية والقناطر الخيرية وبعض المصانع، وتناول الغداء بمطعم الحاتي، وحضور حفلات شاي وحفلات ساهرة، اختتمت بحفلة غنائية أحيَتها بلبلة الشرق الآنسة أم كلثوم بدار جمعية الاتحاد النسائي المصري، لصالح منكوبي فلسطين. وتقدمت ثالث فتاة مصرية — زهرة رجب — لأداء امتحان الحصول على إجازة الطيران من مدرسة شركة مصر للطيران. وأُعيد ترميم قلعة قايتباي بالإسكندرية، وصدرَت رواية العقاد اليتيمة «سارة»، ورواية الحكيم «عصفور من الشرق»، وكتاب حسين فوزي «سندباد عصري». وأصدر طه حسين كتابه المهم «مستقبل الثقافة في مصر» دعا فيه إلى تواصل الثقافة المصرية بثقافات دول البحر المتوسط. كان رأْي طه حسين أن مشروعنا المستقبلي للثقافة يجب أن يرتبط بالحضارة الغربية، يتجه إليها، يتلاحم في نسيجها، وأن تلك كانت هي الصورة الأوضح من ارتباطه بصور أخرى، مع حضارات أخرى، وإنما كانت مصر دائمًا جزءًا من أوروبا في كلِّ ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية. وأصدر محمد فريد وجدي دائرة معارف القرن العشرين، وبدأ أحمد أمين تأليفَ كتابه «قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية»، واعتزل عبد الرحمن شكري وظائف الحكومة، وولدت مجموعة ممتازة من المبدعين المصريين — ضياء الشرقاوي، الذي اختطفه الموت قبل أن يهبَنا كلَّ ما لديه — ومحمد مستجاب ومجيد طوبيا والدسوقي فهمي ومحمود بقشيش. وتوفي والد عميد الرواية العربية نجيب محفوظ، وقد استمد منه

— فيما بعد — الملامح الأساسية لشخصية أحمد عبد الجواد. ومات الكاتب الروسي العظيم مكسيم جوركي، والموسيقي المصري الرائد كامل الخلعي.

كان العالم يواجه ردَّة رجعية، تمثَّلت — في بعض أبعادها — في كبت الطاقات الفنية الخلاقة، وتحطيم تماثيل باروخ، وتمزيق صور رينوار وماكس أرنست، وحظر مؤلفات فرويد، وتسمية معظم الفنون باسم واحد، هو الفن المنحط. وفي مواجهة تلك الردة، وجَّه أندريه بريتون — رائد الحركة السوريالية — نداءَه الثوريَّ «من أجل فن حر مستقل». وكان رد فعل جماعة من الفنانين المصريين الشبان لنداء بريتون، إصدار بيان في ٢٢ ديسمبر، وقَّع عليه رمسيس يونان، وفؤاد كامل، وكامل التلمساني، وأنور كامل، وآخرون. وكان عنوان البيان: «يحيا الفن المنحط»! وكان البيان نواة تكوين جماعة «الفن والحرية» في التاسع من يناير ١٩٣٩م. وفي ٨ فبراير أقامت الجماعة أول معارضها الفنية. وقالت نشرة المعرض: «في الوقت الذي لا يهتم فيه الناس في العالم أجمع إلَّا بأصوات المدافع، نجد أنه من الواجب علينا أن نُعطيَ لتيارٍ فنيٍّ معين فرصتَه، ليعبِّر عن حريته وحيويته.» وقد التزمت الجماعة بالوقوف ضد الحرب، في محاولات عضو الجماعة ألبير قوصيري القصصية، واشتراك عضو الجماعة جورج حنين في مؤتمرات السلام ببروكسل في ١٩٣٧م، ومهاجمة رمسيس يونان قوَى الفاشية على صفحات «المجلة الجديدة». كما أصدر جورج حنين أول دواوينه «لامعقولية الوجود». وكتب سلامة موسى ينتقد حياتنا الموسيقية والغنائية، ويطالب بموسيقى وغناء ورقص تبعث فينا النشاط والتحفز والمرح. وعاد العظيم بيرم التونسي — خلسة — من منفاه. وأذاعت محافظة العاصمة نشرةً على أقسام البوليس التابعة لها، تطلب فيها مواصلةَ البحث عن الأستاذ محمود بيرم التونسي، الزجال المعروف، الذي تمكَّن من دخول المملكة المصرية. ومنحت الحكومة الفرنسية الكاتب الكبير توفيق الحكيم وسامَ «أوفيسيه دي كايمي» تقديرًا للنجاح الذي لقيَته الترجمة الفرنسية لعودة الروح وشهرزاد. وأنعمت الحكومة اللبنانية على الموسيقار محمد عبد الوهاب بنيشان الاستحقاق اللبناني «تقديرًا لخدماته المتوالية للنهوض بالموسيقى الشرقية، وصناعة السينما في الشرق». واحتفل طلبة كلية الآداب (لم تكن هناك سوى جامعة واحدة هي فؤاد الأول) بالدكتور طه حسين، لحصوله على الدكتوراه الفخرية من جامعة ليون بفرنسا. وصوَّر كمال سليم فيلمه الأشهر «العزيمة» بطولة فاطمة رشدي وحسين صدقي. وبدأ تصوير فيلم «وداد» لأم كلثوم. وعرضت سينما استديو مصر فيلم «لاشين» الذي يعالج إحدى فترات العصر المملوكي. ومن الأفلام العربية «سلامة في خير» بطولة نجيب

الريحاني وروحية خالد وحسين رياض وراقية إبراهيم وشرفنطح، و«يحيا الحب» لعبد الوهاب وليلى مراد، و«أنا طبعي كده» بطولة فؤاد شفيق وزوزو شكيب، و«ساعة التنفيذ» بطولة يوسف وهبي وأمينة رزق. وعرضت سينما الكوزموجراف بالإسكندرية روايةَ علي الكسار «عثمان وعلي». ومن أغنيات العام: يامين يجيب لي حبيبي وياخد من عينيه عين. وقدَّمت الراقصة تحية محمد (كاريوكا) بعض رقصاتها في مسارح أوروبا. كما رقصت في حضرة كمال أتاتورك، فتعاقدَت بعضُ الفرق الأجنبية معها كراقصة أولى.

ومن الأحداث الثقافية العالمية: كتب جان بول سارتر أولى رواياته «الغثيان»، وأصدر صمويل بيكيت مجموعتَه القصصية «مورفي»، وكتب ألبير كامي رائعته «كاليجولا»، وفازت الأمريكية بيرل باك بجائزة نوبل في الآداب، لتصبح رابع امرأة تنال الجائزة العالمية، وانتُخب أندريه موروا عضوًا في الأكاديمية الفرنسية، وعرضت سينما النصر (تريامف) فيلم «سباق برودواي» بطولة وارنر باكستر وميرنا لوي، وهو فيلم تجعلك مناظرُه «ترتجف وتقشعر، وتجعل أسنانك تصطك»، وقام كاري جرانت وكاترين هيبورن ببطولة الفيلم الجديد «الأجازة»، ومن نجوم السينما العالمية: مارلين ديتريش وجاري كوبر وجورج برانت وكاي فرانيس وبول موني وآن ديفوراك.

أما المواسم والأعياد الرسمية التي عُطِّلت فيها مصالح الدولة المصرية، وأخذ الناس إجازات، فهي الاحتفال بالكسوة الشريفة (النصف الأول من ذي القعدة ١٣٥٦م)، وميلاد الملك فاروق (١١ فبراير)، والاحتفال بسفر المحمل الشريف إلى الأقطار الحجازية (النصف الثاني من ذي القعدة). وكانت الكسوة المصرية تُنقَل إلى الحجاز في موكب رسمي، تزفُّه كتائب من الجيش المصري، حتى سُمِّيَ الجيش إلى قيام ثورة يوليو: جيش المحمل! ... والوقوف بعرفات، وقفة العيد الكبير (٩ ذي الحجة) تليها أيام عيد الأضحى (من ١٠ إلى ١٣ ذي الحجة)، ثم الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية (أول محرم ١٣٥٧م)، أما ١٥ مارس فيتضمن مناسبتَين، الأولى يوم استقلال مصر في ١٩٢٢م، ويوم افتتاح البرلمان المصري في ١٩٢٤م. واحتفل بعودة المحمل الشريف من الأقطار الحجازية في النصف الأول من محرم ١٣٥٧م. كما احتفل بذكرى ارتقاء الملك فاروق في ٢٨ أبريل، وبيوم شم النسيم في ٢ مايو، وبالمولد النبوي الشريف في ١٢ ربيع الأول، وبوفاء النيل — جبر البحر — في النصف الثاني من أغسطس. أما وقفة العيد الصغير ففي ٣٠ رمضان، تليها أيام عيد الفطر الثلاثة. أما المواسم الإسلامية الخاصة، والتي احتفلت بها وزارة الأوقاف العمومية، فضلًا عن الأغلبية المسلمة من المصريين، فهي: ليلة عاشوراء (١٠ محرم)، وليلة الإسراء

والمعراج (٢٧ رجب)، وليلة النصف من شعبان (١٥ شعبان)، وليلة أول صوم رمضان (أول رمضان)، وليلة القدر (ليلة نزول القرآن الكريم في ٢٧ رمضان). وأما المواسم والأعياد غير الرسمية، والتي تُعَد أعيادًا خاصة، فلم تُعَطل فيها مصالح الدولة، فهي: عيد الختان (رأس السنة للغربيِّين في أول يناير)، وعيد الغطاس للشرقيِّين والأحباش (٧ يناير)، وعيد رأس السنة «جولیانة» للشرقيِّين (١٤ يناير)، وعيد الغطاس للشرقيِّين، وعيد الميلاد للأرمن الشرقيِّين (١٩ يناير)، وثلاثاء الزفر — رفاع الصوم الكبير للغربيِّين (٩ فبراير) وأربعاء الرماد — الصوم الكبير (١٠ فبراير)، وتذكار القديس داود للغربيِّين (أول مارس)، وتذكار القديس باتريك للغربيِّين (١٧ مارس)، والشعانين الكبرى للغربيِّين (٢٦ مارس)، وعيد الفصح لليهود (٢٧ مارس)، وللغربيِّين (٢٨ مارس)، وثاني عيد الفصح للغربيِّين (٢٩ مارس). والفارق هنا أن أول عيد الفصح تُعطَّل فيه المحاكم المختلطة، أما الثاني فهو يوم عطلة في البنوك، وعيد البشارة للشرقيِّين (١٧ أبريل)، والشعانين الكبرى للشرقيِّين (٢٥ أبريل)، وخميس العهد الجديد للشرقيِّين (٩ أبريل)، والجمعة المقدسة (٣٠ أبريل)، وعيد الورد للأروام (أول مايو) — لم يكن قد بدأ الاحتفال بالعيد العالمي للعمال في الأول من مايو — وعيد الفصح للشرقيِّين والأحباش (٢ مايو)، وخميس الصعود للغربيِّين (٦ مايو)، والسبوعات، عيد العنصرة لليهود (١٦ مايو)، وعيد العنصرة للغربيِّين (١٦ مايو)، وثاني يوم العنصرة للغربيِّين (١٧ مايو)، وخميس الصعود للشرقيين (١٠ يونيو)، وعيد العنصرة، وآخر الخماسين للشرقيِّين (٢٠ يونيو)، وثاني يوم العنصرة (٢١ يونيو). والفارق أن اليوم الثاني إجازة في البنوك، وتذكار القديس يوحنا الرسول الإنجيلي للغربيين (٢٤ يونيو)، وعيد انتقال العذراء للغربيين (١٥ أغسطس)، وعيد انتقال العذراء للشرقيِّين (٨ أغسطس)، وعيد رأس السنة لليهود (تشري ٥٦٩٨)، وعيد رأس السنة للقبط (توت ١٦٤٥)، وصوم الكبور عاشوراء لليهود (١٥ سبتمبر)، وعيد سكوت «المظلة» لليهود (٢٠ سبتمبر)، وليلة الإسراء للمسلمين (٢٧ رجب)، وليلة النصف من شعبان للمسلمين (١٥ شعبان)، وتذكار جميع القديسين للغربيِّين (أول نوفمبر)، والاحتفال برؤية هلال رمضان للمسلمين (٢٩ شعبان)، وأول صوم رمضان (أول رمضان)، وميلاد سمو ولي الأمير محمد علي ولي عهد المملكة المصرية (٩ نوفمبر)، ويوم الهدنة للحرب العظمى (١١ نوفمبر)، وليلة القدر (٢٧ رمضان)، وعيد الميلاد للغربيِّين (٢٥ ديسمبر)، وثاني يوم عيد الميلاد «بوكسنج» (٢٦ مارس).

أما خريطة العالَمَين العربي والإسلامي فكانت تشتمل على: مصر وملكها هو فاروق الأول، والعراق وملكها غازي الأول، وجمهورية تركيا التي يرأسها عصمت إينونو، وإيران

وإمبراطورها رضا شاه بهلوي، والدولة السعودية وملكها عبد العزيز آل سعود، واليمن وإمامها يحيى حميد الدين، وجمهورية لبنان ويرأسها إميل إدة، وجمهورية سوريا ويرأسها هاشم الأتاسي، وفلسطين وكانت خاضعةً للاحتلال البريطاني، وإمارة شرق الأردن وأميرها عبد الله بن الحسين، وتونس وسلطانها أحمد بن علي، ومراكش وسلطانها محمد بن يوسف، وطرابلس وبرقة — ليبيا — وكانت مستعمرةً إيطالية، والأفغان وملكها محمد ظاهر شاه، وألبانيا وملكها أحمد زوغو، وزنجبار وسلطانها خليفة بن حرب البوسعيدي، وإمارات الهند الإسلامية: حيدر أباد، بهابور، بهوبال، رامبور. أما في جنوب اليمن، فثمة سلطنة لحج ويتولَّى حكمَها عبد الكريم الفضل العبدلي، والشحر والمكلا ويتولاها صالح القعيطي، وحضرموت ويتولَّاها جعفر الكثيري. وفي خليج العرب: سلطنة مسقط وعمان ويتولاها سعيد بن تيمور، ومشيخة دبي وأميرها سعيد بن مكتوم، ومشيخة قطر وأميرها ابن ثاني، ومشيخة البحرين وأميرها حمد آل خليفة، ومشيخة الكويت وأميرها أحمد الجابر، بالإضافة إلى جاوة، وجزر الهند الشرقية، والملايو، وعدد من الإمارات الإسلامية الخاضعة لإنجلترا وهولندا.

وبلغ عددُ المصريين الذين أمضَوا إجازة الصيف في لبنان سبعةَ آلاف شخص. وكتبت مجلة إسلامية أن «المصريين قد انتبهوا أخيرًا إلى قضية فلسطين بعد طول تهادُن.» بعث الفكرة فيهم أبناء الأزهر الشريف، وهم — كما قال شوقي رحمه الله — قطب السياسة المصرية ومحورها منذ دخلها نابليون. وألقى حاييم وايزمان رئيس الوكالة اليهودية العالمية خطابًا في القدس أكَّد فيه أن اليهود يفضلون الاستقلال على قسم من فلسطين، على أن يكونوا أقليةً فيها كلها، «أما الوصول إلى أكثرية يهودية في فلسطين كلها، فهذا لا يمكن التفكير فيه». وظهر البترول — للمرة الأولى — في الكويت، وأعلنت المملكة العربية السعودية عن اكتشاف البترول — بكميات تجارية — في منطقة الأحساء، واتخذت تركيا خطوات فعلية لضم لواء الإسكندرونة السوري، ومات — في العاشر من نوفمبر — مصطفى كمال أتاتورك منشئ تركيا الحديثة، ومات الشاعر الإسلامي إقبال، وتكررت المصادمات — في الهند — بين السنَّة والشيعة، بينما الهندوس يسفكون دماء المسلمين، لا يفرِّقون بين سنِّي وشيعي.

وفي الثلث الأخير من العام، بدأت نذر الحرب العالمية الثانية. آلاف من جنود الاحتياط الفرنسيِّين اتجهوا إلى خط ماجينو ومناطق الحدود. هتلر يُعلن في بساطة: «فليعطِ السيد بنيش الحرية لمقاطعات السوفييت، وإلَّا ذهبنا نحن وأعطيناهم إياها.» وفرنسا وإنجلترا

والاتحاد السوفييتي تُهدد بدخول الحرب إذا تعرَّضت تشيكوسلوفاكيا للغزو النازي. وفي العام التالي، بدأت الحرب، واستمرت لأعوام ستة متتالية.

لقد شاهدت نهايات الحرب العالمية الثانية، وخروج قوات الإنجليز من مصر، وانتخابات الأحزاب، ومظاهرات الطلبة ضد السراي والحكومة، وتأثيرات إلغاء معاهدة ١٩٣٦م، ومحاصرة قوات الجيش سراي رأس التين حتى غادر الملك فاروق البلاد مساء السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٢م، وكنت مع الواقفين في ميدان المنشية وعبد الناصر يواجه طلقات الرصاص في ١٩٥٤م، ثم وهو يُعلن تأميم القناة في ١٩٥٦م. وعشتُ عدوان ١٩٥٦م، وهزيمة ١٩٦٧م، وانتصار ١٩٧٣م، وصلح ١٩٧٩م.

والأيام تمضي.

أبي

ماتت أمي قبل أن أبلغ العاشرة، فأنا لا أذكر منها سوى ملامح كالأطياف. ومع أن ذكرياتي المحدودة والمحددة، تضع أمي في إطار القسوة، فإني أثق — الآن — أن الطيبة كانت هي السمة الأساسية في شخصية أمي. ساعدني على تفهُّم ذلك أحاديث أبي عنها، وقراءاتي في الرسائل التي كانت تبعث بها من دمنهور — مدينتها — إلى أبي في الإسكندرية، رسالتين، وربما ثلاثًا كل يوم. كل رسالة تبدأ بالقول: «حبيبي الغالي لطفي أفندي»، أو «خطيبي العزيز لطفي بك» ... ويتصدر الرسالةَ، أحيانًا، رسمٌ بأقلام ملونة لساعي بريد، أو قلبين، أو وردة، أو كيوبيد بقوسه الأشهر. وكانت كلمات الرسائل بسيطة ومحبة وطيبة. وثمة ذكرياتي الشخصية المتناثرة، بعد غربلتها من تأثيرات عقابها لتصرفاتي، والذي بلغ — في معظم الأحيان — حدَّ القسوة.

كان اللعب في الشارع الخلفي يحتاج إلى وساطة من أبي، حتى تُعلن أمي موافقتَها. وكانت نظافتنا اليومية حرصها الدائم. أحكي لها عن توضُّئي في جامع سيدي علي تمراز. تهزُّ رأسها في غير اقتناع: ادخل اتشطف!

وحين عانت مصرُ وباءَ الكوليرا في ١٩٤٧م، كان من بين الإجراءات التي اتخذتها وزارة الصحة فتحُ أبواب حمام الأنفوشي لتلاميذ المدارس، والعاملين في الميناء والمصالح الحكومية بحي الجمرك. كان التلاميذ — والعمال — يذهبون في طوابير إلى الحمام. يُسلِّم كلٌّ واحد ثيابه، ويتسلَّم قطعة صابون، ويغسل جسده جيدًا بالماء الساخن، ليحلَّ آخرُ مكانَه، ويحصل — عند انصرافه — على ثيابه بعد تعقيمها. وجدَت أمهاتُنا ذلك التصرفَ أمرًا معيبًا: هل نُعاني القذارة، بحيث نذهب — قسرًا — إلى الحمام العمومي، فنغتسل ونُطهر ثيابنا؟!

تفتَّق ذهنُ صديقي وجاري عادل الصبروتي عن حيلة بارعة: لماذا لا نستغل رفض الأمهات في الفرار من الواجبات التي ينتهي عدم مذاكرتنا لها بعلقة ساخنة؟ ... وألفنا الادعاء أن المدرسة ستُنظِّم لنا في الغد زيارةً إلى الحمام. وألفنا كذلك أن ترفض أمُّ الصبروتي، وأمي، خروجنا من البيت: ماذا يظننا هؤلاء الناس؟ ... وكنَّا — بدلًا من أداء الواجب اللعين — نُزجي النهار في لعب متواصل، على بسطة السلَّم!

كنت «شيئًا» ينبض بالشقاوة والعفرتة. أُحطِّم ما يصادفني، وأشارك الأولاد مشاغباتِهم لخلق الله. وكان الجيران يشكون لأمي، فتضربني وهى تصيح: أموتك ... ولا تطلعش مجرم! ... يتملَّكني الضيق، وأتساءل: هل تكرهني؟! ... وكانت أمي تُشدد علينا، فنعود عقب أذان الفجر مباشرة، وقبل أن يُضيء عفريت الليل مصابيحَ الغاز بعصاه الخشبية الطويلة.

ويومًا، شارك أخي أبناء الجيران معاكساتِهم لعم سيد ساكن الشقة العلوية: يا راجل يا عجوز ... مناخيرك قد الكوز ...

ومع أني عزفت عن المشاركة — ربما لأني كنت أتوقَّع عقاب أمي — فقد شكا الرجل الطيب لأمي «أولادها». وبهمة غير منكورة، قيدَت سيقاننا — أخي وأنا — بحبل واحد، ثم انهالَت بعصا «التنفيض»، لا تأبه بتوسلاتنا ولا صرخاتنا، حتى أنقذنا — باستثارة أمومتها — جارُنا الأعز عبده فرج الصبروتي!

وماتت أمي، وكبرتُ أنا، وتزوجتُ، وأنجبت. وكان من الطبيعي أن تعود الذكريات، وتنشأ المقارنة، وتتوضح معانٍ كانت غائبة، من بينها إشفاق الأبوين على مستقبل أبنائهما، والفارق بين التدليل والإفساد، والتعويد على الحياة السهلة، أو تلك التي تحرص على القيم. كان الإشفاق والحنان والخشية من الانحراف، هو الباعث وراء الإيذاء المتواصل من أمي ... أدركت ذلك متأخرًا، وبعد فوات الأوان!

من الصعب أن أنسى ماعانَته أمي من مناقشات حامية، طرفها المقابل أهل أبي. كانوا يتحلَّقون حولها في غرفة «العقاد»، يُعيدون عليها رأيهم بأن أبي أخطأ حين تزوج فلاحة! — ألم يكن أصلُه القريب فلاحًا؟! — وكنت أُشفق على أمي جدًّا. مع أني لم أكن أفهم مَن الخاسر ومَن المنتصر في تلك المعارك الكلامية، فإني كنت أُشفق عليها لمجرد أنها تُواجه — بمفردها — أربعَ أو خمس نسوة، أتَينَ إليها ليطرحنَ السؤال — مجددًا — كيف تزوجت أبي؟!

على الرغم من أنه قد مضى على وفاة أمي عشرات السنين، فإني أتذكر يوم رحيلها كأنه الأمس …

كانت تُعاني مرضًا في القلب، أضاف إلى تأثيراته حبُّها المسرف للنظافة. كانت تحرص على نظافتها الشخصية ونظافة البيت، إلى حد الوسواس …

رأسًا على عقب، لم أجد ما يصدق في التعبير عن هذا المعنى إلَّا في حرص أمي على النظافة، نظافة تُكرر نفسها كلَّ صباح إلى قرب المغرب، فهي تبدأ في تنظيف الشقة فور انصراف أبي إلى عمله، وانصرافنا — إخوتي وأنا — إلى مدارسنا، لا تكل ولا تمل؛ فالكراسي تُوضَع مقلوبة على ترابيزة السفرة، وأرضية الحجرات تُكنس، وتمسح الصالة والطرقة بالماء والصابون والليزول، والفوطة تجري على كل ما في البيت، حتى السرير النحاسي في غرفة نومها، تطمئن إلى التماعه بعينَين متفحصتَين، ورأس العبد — أداة نظافة مندثرة! — تنفض التراب من الشبابيك والأسقف والجدران. يقرصنا الجوع، فتُسكته بسندوتش حتى تنتهيَ من عملية التنظيف اليومية. ربما جلسنا إلى طعام الغداء قبل المغرب أو بعده، ولم تكن الخادمة تجد — في الأغلب — ما تفعله، إلَّا مراقبة أمي وهى تحمل المنفضة ورأس العبد والجردل والخيشة … وهات يا تنظيف! … وربما أعادت ما فعلته الخادمة بإهمال، سواء أكان ذلك صحيحًا أم أنه ما كانت تتصوره أمي. وحين أسرفت أمي في التشديد على الخادمة الجديدة أن تغسل كلَّ شيء، أقدمت الخادمة المسكينة على غسل الحلاوة الطحينية بالماء … وبالطبع، فأنت تعرف النتيجة!

زاد المرض على أمي، فلزمَت الفراش. ألفتُ رؤيتَها راقدةً سنة كاملة، يعودها جدِّي وجدَّتي وأخوالي من دمنهور، ويعودها — أحيانًا — أهل أبي. كانت فترات تعرُّضها للإغماء تطول، فيُداخلنا القلق. لكن الطبيب المصري الذي يسكن شقةَ الطابق الثاني — ولقبه، فيما أذكر: النجار — حظيَ بيتنا بطبيبَين، كما ترى، أرمني ومصري، وإن لم تَحُل رعايتهما دون وفاة أمي في سنٍّ باكرة. هذا الطبيب، كان يبادر إلى إسعافها بما لم أتبيَّنْه من أدوية.

في ذلك اليوم، وعقب عودتنا من مدارسنا، نادَت أمي على شقيقتي بصوت واهن، وأوصَتها بما لم أسمعه منها من قبل، بأبي وبنا وبالبيت. وشدَّدت على أهمية أن ترعى أخي الأصغر، وكان في عامه الثاني. واستمعَت شقيقتي إلى نصائح أمي في صمت، لم تسأل أو تناقش، وخمَّنت — في وقفتي على باب الحجرة — أنها — مثلي — لم تفهم مما قالته أمي معنًى محددًا. فلما قَدِم أبي من عمله — وكنت لا أزال في مكاني على باب الحجرة — تحسَّس جبهةَ أمي بيده، ليطمئن — فيما يبدو — على حرارتها، فأخذَت يده، وقبَّلتها

— لم أكن رأيتها تفعل ذلك من قبل — وقالت: سامحني يا لطفي — اسم أبي — أتعبتُك بمرضي!

وهوَّن أبي الأمر عليها، ودعا لها بالشفاء.

ذهبتُ إلى الحجرة المطلَّة على الميناء الشرقية. تشاغلتُ بتأمل مراكب صيد المياس، وروَّاد قهوة فاروق، والقادمين إلى بحري في ترام رقم ٤. ثم دخلت الشقة على أصوات متلاغطة، وبدا الجميع مذهولين وهم يدخلون، ويغادرون، غرفة أمي. وقالت الجدة في شقة الطابق الرابع، إنها كانت تجلس بجوار أمي، تعودها، لما انتفضت أمي — فجأة — وأشارت إلى ما لم تتبيَّنْه العجوز، وهتفت: أبعدوه من هنا! … ثم سكت صوتها، وجسمها.

أمرني أبي بالنزول إلى مردروس، الطبيب الأرمني بالطابق الأول. وصعد الطبيب السُّلَّم بخطوات متباطئة. وكان يقف، في كل طابق، أمام النافذة المطلَّة على الشارع الخلفي، ربما ليأخذ أنفاسه، وكنت أدعوه — بيني وبين نفسي — إلى الإسراع في الصعود، كي يُنقذ أمي.

أطال الدكتور مردروس تأمُّلَ الجسد الساكن. كانت العينان جاحظتَين، والبطن منتفخًا بصورة ملحوظة، والجسد بكامله متصلِّبًا، كأنه وُضع في قالب. مال الرجل على صدر أمي، وباعد بأصبعَيه بين الجفنَين، وضغط بقبضة يده على البطن المنتفخة، ثم هزَّ رأسه في أسًى: ماتت!

وانطلقت صرخة من إحدى الواقفات.

قضينا — إخوتي وأنا — ليلتنا في شقة الجيران المقابلة. وأصرَّ أبي — في الصباح — أن نذهب إلى مدارسنا. فلمَّا عدنا، ظللنا في دكان عم عبد السلام الحلاق أسفل بيتنا، فلم يُؤذَن لنا بمغادرته، حتى شُيِّعت الجنازة. ولا زلت أذكر ارتجافةً شملتني حين رأيتُ قطعة الليف التي «غُسِّلت» بها أمي، في أرض الطريق.

وقد انعكست مشاهدُ ذلك اليوم في العديد مما كتبتُ.

داخلني شعورٌ بالراحة لوفاة أمي. كنت أسأل نفسي: لماذا تُعاملنا بهذه القسوة؟ … لماذا ترفض نزولنا للعب في الشارع الخلفي؟ … لماذا تضربنا عمَّال على بطَّال دون تثبُّت من الاتهامات التي نُواجهها؟

يصعب القول أني تأثرت بأمي على نحوٍ ما. فقد ماتت — كما رويتُ لك — قبل أن أُجاوز التاسعة. ووجدت بعض الآراء النقدية في رحيل أمي الباكر، عاملًا في غياب المرأة عن معظم

ما كتبت، وهي آراء تفتقد الموضوعية؛ لأن مجتمع «الأسوار» يخلو من المرأة لطبيعة المجتمع نفسه، فهو معتقل، و«إمام آخر الزمان» استلهمت واقعة ظهور المهدي في ضوء العقيدة الشيعية الإمامية؛ بحيث يغيب أيُّ دور فعلى للمرأة. وكان رحيلُ زوج المتنبي آخرَ عهده بالمرأة. غابت المرأة حتى عن قصائده، واتفق النقَّاد على أن غزليات المتنبي هي أضعف ما في ديوانه. لكن المرأة لم تَغِب عن «قاضي البهار ينزل البحر»، و«قلعة الجبل»، و«النظر إلى أسفل»، و«الصهبة»، وعشرات القصص القصيرة؛ بحيث يصعب التأكيد على غياب المرأة عن أعمالي بصورة قاطعة.

مع أن أبي (١٨٩٧م) من مواليد قرية «بركة غطاس» التابعة لمركز أبو حمص، التابع لمديرية البحيرة — محافظة البحيرة الآن — (شملَتني فرحةٌ غامرة عندما قرأت في كتب التاريخ أن قرية أبي «بركة غطاس» قد سدَّت مجرى الماء فيها، كي تحولَ بين قوات نابليون والشرب منه، وإن أحزنني — في الوقت نفسه — أن جنود الفرنسيِّين عاقبوا أهل القرية، بإحراقِ القرية ونهبِها). ومع أن حلَّ الأوقاف الأهلية قد أظهر في شجرة عائلتنا جَدًّا اسمه «قاضي البهار» ترك أراضٍ وعقارات في باب الشعرية وأطفيح وكوم حمادة ومناطق أخرى في مصر، ومع أن أبي كان يعتزُّ بانتمائه إلى الإسكندرية التي نشأ فيها، وعمل، وتزوَّج، وأنجب أبناءه ... مع ذلك، فإن الجدَّ القديم لعائلتنا «جبريل» — كما روى لي أبي — ربما أتى من إحدى دول المغرب العربي. والملاحظ — بالفعل — أن العديد من عائلات الإسكندرية وفدَت من المغرب العربي، سواء بالطريق البري، عبر صحراء ليبيا — لوبيا، اسمها قبل الخمسينيات — أو بالسفن من طريق البحر.

لكن وَعْيِي تفتَّح على الإسكندرية. شهدَت طفولتي ونشأتي وصباي ومطلعَ شبابي، وهي صورة «الموطن» في ذاكرتي، وهي المكان الذي تخلقت فيه — حتى الآن — غالبية أعمالي، وبالذات: هذه المنطقة ما بين المنشية وسراي رأس التين، تضم المرسي أبو العباس، والبوصيري، وياقوت العرش، وعلي تمراز، والميناء الشرقية، وحلقة السمك، والسيالة، والصيادين، والمسافرخانة، والحجاري، والموازيني، وشارع الميدان، وسراي رأس التين ... إلخ. في هذه المنطقة، مارس أبطال قصصي حيواتهم: سكنوا البيوت، وتنقَّلوا في الميادين والشوارع والأزقَّة، جلسوا على شاطئ الكورنيش، قضَوا الأمسيات في حدائق رأس التين، عاشوا اللحظات الهانئة، والقاسية، اصطادوا بالسنارة والجرافة والطراحة، واصطادوا المياس ساعات العصارى، ترقَّبوا النوات وعانَوا تأثيراتِها، بدءًا باختطاف الرجال في البحر، إلى توضح الكساد في ملازمة البيوت، أو شغل الوقت بالجلوس على القهاوي.

كان أبي حريصًا على الزيِّ الكامل: البذلة والكرافتة والطربوش والحذاء المغلق. لا أذكر أني شاهدته يومًا يرتدي قميصًا أو صندلًا، أو أنه يغادر البيت، أو يأتي إليه، بلا طربوش. ومع أن الطربوش لم يَعُد زيًّا رسميًّا منذ العام الأول للثورة، فإن أبي ظل حريصًا على ارتدائه، ودفعت — أحيانًا — ثمن حرصه. تحوَّل الغالبية من أصحاب محال الطرابيش إلى مهن أخرى. وكنت أنتظر بالساعتين أو الثلاث، حتى ينتهيَ «الطرابيشي» الوحيد الذي ظل على ولائه لمهنته في حيِّنا، في امتداد شارع إسماعيل صبري بعد تقاطعه مع شارع الميدان. كان يستقبل طرابيش هؤلاء الذين عزَّ عليهم أن يتخلَّوا عن أغطية رءوسهم، حتى لو فعل الآخرون ذلك. أرقب الرجل وهو يضع الطربوش في قالب النحاس، ويرشُّه بالماء، ويضعه فوق النار، وفوقه المكبس. فإذا انتهى كيُّ الطربوش، ركَّب الرجل له الزرَّ، وانتقل إلى سواه. وفيما أذكره من بقايا أعوام الحرب، فقد كان أبي يوافق على نزول أمي وأختي إلى المخبأ عندما تنطلق صفارة الإنذار، بينما يرفض نزولي وأخي الأكبر، فنحن رجال. يأمرنا بالبقاء في السرير، ويُطفئ النور، ويقف بالقرب منَّا، يتلو آياتٍ من القرآن الكريم وأدعية، ويكلِّمنا، ويسلِّينا، ويروي بعض ذكرياته التي لا تتصل بلحظات الغارة. ولم تكن كلمة «الخوف» تأتي على لسانه.

وكان أبي يرفض أن نحدِّد المكان الذي نخرج إليه: الشارع الخلفي أو جامع المرسي أبو العباس، أو كورنيش الميناء الشرقية، وإن اشترط أن نذكر المكان الذي كنَّا فيه حين يُفاجئنا بالسؤال، فلا نكذب. وكان ذلك دافعًا لأن نحاذر في تصرفاتنا، لا نذهب إلى مكان نضطرُّ لإنكاره إذا سُئلنا: أين كنَّا؟

تنقَّل أبي بين العديد من الشركات، ربما لأن المؤسسات الخاصة لم تكن تُعطي — حين يتركها الموظف — سوى مكافأة نهاية الخدمة، فلا تأمينات ولا معاشات. وثمة بطاقة لأبي — ما زلت أحتفظ بها — كتب فيها ثلاثةَ مواعيد لثلاث شركات، كان يعمل فيها من التاسعة إلى الحادية عشرة صباحًا، ومن الحادية عشرة والنصف إلى الواحدة والنصف بعد الظهر. أما الموعد الثالث فهو من الرابعة إلى السادسة مساء. وكان يترجم — في البيت — لشركات أخرى …

كان يُتقن — كتابةً وكلامًا — الإنجليزية والفرنسية والتركية والإيطالية واليونانية والألمانية. زاد من تعمُّقه فيها أنه كان يُترجم من كل لغة إلى الأخرى. فلما اشتدَّ مرضُ الربو على أبي، تصرَّف كالربَّان الذي أوشكَت سفينته على الغرق، فهو يتخفف من معظم

ما تحمله السفينة لكى يحول بينها وبين المأساة. وقد «تخفف» أبي من الأعمال الإضافية في البيت. ثم لحق ذلك بالاستقالة من إحدى الشركات. ثم استقال من شركة ثانية. ثم أجبره اشتدادُ المرض على هجر عمله جميعًا، ولزم البيت.

وعشنا أيامًا صعبة.

لم يكن أبي يكتفي بالتحدث عن المنفلوطي وطه حسين والعقاد والزيات والحكيم وهيكل والمازني وغيرهم، هؤلاء الذين أحبَّهم واقتنى مؤلفاتهم ... لكن أحاديثه امتدَّت — أحيانًا — فشملَت العديدَ من أدباء الإسكندرية الذين لم تضمَّ مكتبةُ أبي أيًّا من مؤلفاتهم؛ ربما لأن غالبيتهم لم يُصدروا كتبًا، أو لأنه كان يكتفي بقراءة مقالاتهم في «البصير» و«السفير»، وغيرها من صحف الإسكندرية. تحدَّث عن عبد الحميد سالم، وعبد اللطيف النشار، وصديق شيبوب، وخليل شيبوب، وأحمد زكي أبو شادي، وإسماعيل أدهم، ونقولا يوسف، ويوسف فهمي الجزايرلي، وفليكس فارس، ومفيد الشوباشي ... فلم أكن أعرف إلَّا أنهم أدباء من مدينتي، لم يُتَح لي — أيام صباي — أن أقرأ لهم، وإن أفلحتُ — فيما بعد — في أن أقرأ لهم قليلًا، وأقرأ عنهم كثيرًا. ثم جمعتني الصداقة والتلمذة بالنشار والشوباشي. تعرَّفت إلى الأول في مكتبِه بسراي الحقانية، ومجلسه المختار في بار قديم بشارع البوستة، خلف ميدان المنشية. وقرأت للثاني ترجمته لمسرحية ستيفان زفايج «إرميا». أعجبت بها كعملٍ فنيٍّ، وإن غابَت عني أهدافها الصهيونية المعلنة. فلمَّا توضحَت لي الأمور — فيما بعد — تحدَّثتُ إلى الشوباشي في شقته المطلة على شارع المساحة، عن شكوكي القديمة في أهداف مسرحية زفايج، والتي أصبحت — بعد أعوام قليلة — يقينًا كاملًا. ووافقني الرجل الطيب على الشك، وعلى اليقين، وأكَّد أنه لم يكن يُدرك حجم المخطط الصهيوني عندما قَبِل ترجمة المسرحية، فلم تكن التطورات الساخنة للقضية الفلسطينية قد لاحَت في الأفق القريب. ثم طلب — في أبوة نبيلة — أن أُهمل الإشارة إلى المسرحية، كأنها لم تُترجم، وكأني — بالتالي — لم أقرأها!

عمومًا، فسأحدثك عن النشار والشوباشي — كيف تتلمذت عليهما — في مناسبة قادمة.

لعل اهتمامات أبي — حين أتذكَّرها الآن — كانت تؤهله لأن يُصبح كاتبًا. حوَت مكتبتُه آلافَ المجلدات، أفدتُ منها، وكانت بدايةَ تعرُّفي إلى الثقافة كاهتمام، وإلى الأدب كقضية

حياة. وكان عمل أبي — كمترجم — قد أتاح له الاطلاع على الكتب في مصادرها. حتى الصحف الأجنبية؛ مثل «البورص»، و«الإجبشيان جازيت»، و«البروجريه إجبسيان»، كنت أجدها ضمنَ صُحُفِه اليومية. كان يُكلفني بشرائها من بائع الصحف على ناصية شارع التتويج وإسماعيل صبري (تعرَّضتُ — بسبب ذلك — لعلقة ساخنة من بعض الصبية، لا زلتُ أتذكَّر تأثيراتها على جسدي الصبي — آنذاك — فقد كان الصراع العربي الصهيوني في إحدى ذُرَى تفاقمه، عندما اشتريت لأبي مجموعةَ الصحف ذات صباح. وبعفوية، ثنيتُ الصحف بحيث كان ظاهرُها مكتوبًا بالفرنسية أو الإنجليزية. وهتف صبيٌّ: خواجة! والتفَّ الأولاد حولي، كلٌّ يحاول تأكيدَ شعوره الوطني بمقدار ما يُوجهه لي من ضربات ولكمات). وقد حرص أبي على تسجيل مذكراته اليومية، روى فيها — بأسلوب جيد للغاية — تطورات حياته، وتطورات حياتنا أيضًا، منذ حملَت بنا أُمُّنا، حتى خرجنا إلى الوجود، وما عانيناه من أمراض، وما أنفق علينا من مصاريف، ومقدار استجابةِ كلٍّ منَّا لاختبارات الذكاء التي كان يُخضعنا لها بين حين وآخر.

وذات يوم — أتذكره جيدًا — كتب أبي مقالةً عن الأوضاع الاقتصادية في مطلع الخمسينيات — الفترة نفسها التي كتب فيها مقالته — ووضع المقالة في مظروف، وطالبني بتسليمها إلى صديق له يعمل مديرًا لمكتب «المقطم» بالإسكندرية. وسلَّمت الصديق المظروف، وتسلمتُ — بعد أيام — نسخةً من الجريدة، وطالعت — بحب — اسمَ أبي يلي عنوان المقالة، ويسبق المقالة التي احتلَّت نصف عمود في الصفحة الأخيرة.

وكان أبي صديقًا لعدد من قادة الأحزاب وكبار المسئولين. ويحتفظ ببطاقات المعايدة والرسائل التي يبعثون بها إليه في المناسبات المختلفة. خصص لها درجًا في «بوفيه» صغير بحجرة نومه — هو الدرج الوحيد المغلق في الشقة كلها — وكان يعتزُّ بوطنيةِ ابنِ عمه الصحفي الراحل محمد عوض جبريل، ويفتش عن مناسبة يتحدث فيها عن دور عوض جبريل في أحداث ثورة ١٩١٩م، والسلة التي طالما أخفى فيها القنابل، وحملها إلى أفراد الجهاز السري بقيادة عبد الرحمن فهمي، فضلًا عن كتاباته — عوض جبريل — التي لم يُتَح لي قراءتها، وإن أكَّد أبي أنها التزمت خطًّا وطنيًّا مطلقًا. وكانت مناقشات أبي مع أصدقائه تتسم بالفهم والوعي والاجتهاد وحسن الإنصات وبساطة التعبير عن الرأي، مهما يتجه إلى المخالفة ... أتذكَّر ذلك في صورته الكلية، البعيدة، فأعجب لاكتفاء أبي — حتى وفاته — بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى، دون أن يجاوز ذلك إلى الكتابة في قضية ما تشغله — وما أكثر القضايا التي شغلته — أو، في الأقل، يترجم بعض الموضوعات التي لا

تتصل بعمله، والذي تحدد في أمور الاستيراد والتصدير، والقضايا التجارية عمومًا. كنت أرجو أن يعتزَّ أبي بثقافته الواسعة، وإجادته الترجمة، لكنه كان يعتبر ذلك كله جزءًا من طبيعة عمله، فهو لا بد أن يكون قارئًا جيدًا، لاتصال القراءة بالمجال الذي اختاره حرفةً له، والترجمة كذلك وسيلته لكسب العيش. وكما أن سائق السيارة «المحترف» لا يباهي بأنه سائق جيد؛ لأن ذلك هو ما يجب أن يكون كذلك بالفعل، فإن أبي كان يعتبر اللغات ضرورةً لعمله، كمترجم، ولا يصحُّ بالتالي أن يتباهى بإتقانها. لكن ما كان يعتزُّ به أبي جدًّا، ويلحُّ في تأكيده، دوره في مساعدة شركة «الجراية» للورق بأفكاره وجهده، حتى تحوَّلت من دكان صغير إلى مصانع ومخازن ومكاتب، وأصبحت — في أواخر الأربعينيات — أولى شركات الورق في مصر، ثم لحقَتها في ١٩٦١م قراراتُ التأميم …

لكن اهتمامات أبي، ومناقشاته، مع الآخرين أو معي، ومكتبته الضخمة، كانت بدايةَ انحيازي إلى الأدب، حتى من قبل أن أتعرَّف إلى الأدب كتسمية. كنت أحيَا بما يُشبه اليقين أني سأُصبح أديبًا، أو لا أُصبح شيئًا على الإطلاق. وضعتُ كلَّ بيضي في سلة واحدة. راهنتُ على المستقبل المحدد بكل ما في حوزتي.

وقد انعكست شخصيةُ أبي في العديد مما كتبت: رواية «قاضي البهار ينزل البحر»، وقصة «تكوينات رمادية»، ذلك الأب الطيب الذي يعمل بالترجمة، ويعاني الهموم نفسها التي يُعانيها ملايين المصريين.

مع أني أخبرت أبي باعتزامي أن أكون كاتبًا، ومع أنه كان يتابع — بإشفاق وخوف — انغماسي في حرفة الأدب، فأنا أُعيد كتابًا في مكتبته لأحصل على كتاب آخر، لا أكاد أفرغ لمذاكرتي، ومع أنه شاهدني وأنا أكتب، وأمزق ما كتبت، ثم أكتب وأمزق ما كتبت … مع ذلك فإن أبي أظهر عدمَ تصديقه بأن المحاولات التي عرضتُها عليه من تأليفي. يذكِّرني بما فعله والد بابلو نيرودا حين دفع إليه ابنه بمحاولته الأولى في الشعر. تلقَّاها — والكلام لنيرودا — وهو شارد الذهن، قرأها وهو شارد الذهن، أعادها إلى الصغير وهو شارد الذهن، وسأل: من أين نقلتها؟ كان أبي يتصفح ما أكتبه بنظرة عابرة، ثم يسأل في عدم تصديق: بذمتك أنت اللي كاتب الكلام ده؟!

أصرخ: طبعًا يا بابا.

يهزُّ رأسه: مش ممكن … أنت ابني وأنا عارف قدراتك!

لست أدري: ماذا كان يعني أبي بأنه يعرف قدراتي؟ وكيف استطاع أن يعرفها؟ وهل كان يتصور أني أنقل مما أقرأ؟ … معظم قراءاتي — وكتاباتي أيضًا — كانت في غيبة منه، ربما لو أنه لاحظ تقليبي في مكتبته بحثًا عما أقرؤه، لمنعني — خوفًا على الكتب، وإشفاقًا على وقت مذاكرتي — وربما لو أنه لاحظَ انشغالي بالكتابة إطلاقًا، بحيث تأخرَت هموم الدراسة إلى مرتبة تالية، لنصحني — في الأقل — أن أُعنَى بدروسي!

مع ذلك، فإن أبي أصدر حكمه على قدراتي، وانتهى الأمر. لم أحاول أن أناقشه، لأني كنت في غاية الإعجاب بقراءاته وكتاباته (تلك التي تمثَّلت في مذكراته اليومية، أو في ترجماته لمكاتبات العديد من الشركات، مثل كوري للأقطان، والجراية للورق، وغيرها …)

أحيانًا، أسأل نفسي: لو أن أبي عاش، هل كنت أظفر برضائه؟ … هل كان يطمئن إلى ما أكتب بعد أن يعلم أني أنا الكاتب بالفعل؟ … وهل كان يغفر لي مناقشتي لبعض تصرفاته، ورفضها في بعض الأحيان؟

ذلك كلُّه مما يصعب أن أقطع فيه — الآن — برأْي. ولعل إصراري — منذ البداية — على تأكيد سمات بعينها في محاولاتي، مبعثه ذلك السؤال الذي كان يُواجه به أبي ما أعرضه عليه من محاولات: بذمتك أنت اللي كاتب الكلام ده؟!

كانت الفرنسية أحب اللغات الأجنبية إلى أبي. وعند موته كان قاموس الفرنسية مفتوحًا بالقرب منه. وأذكر أن المدرسة الأميرية الابتدائية كانت أول مدرسة حكومية تجعل من الفرنسية لغةً ثانية — بعد العربية — كي لا تصبح للإنجليزية وحدها السيادة على التعليم الوطني. ولأن أبي — كما قلت لك — كان يفضل الفرنسية على اللغات الأجنبية الأخرى، ولأنه — فيما يبدو — قد اقتنع بهدف إنشاء المدرسة، فقد ارتكب جريمةَ — لا يحضرني تعبير آخر! — نقلي من مدرستي إلى المدرسة الجديدة. والتحقت بالمدرسة الأميرية في منتصف العام الدراسي دون أن أعرف كلمةً واحدة من الفرنسية. وظلت كأنها عقدتي الدراسية إلى شهادة الثقافة العامة، فرسبتُ فيها بجدارة!

حاول — فيما بعد — أن أقتربَ من الفرنسية، أن أتعرَّف إليها، وأذاكرها، وأصادقها، تصبح هي لغتي الثانية كما أراد أبي، حتى استطعتُ — في النهاية — أن أُتقنَها.

لم أكن أعرف أن «اللوتارية» هي اليانصيب. التسمية يونانية، واليونانيون هم الذين أدخلوا «اللوتارية» إلى مصر، وإلى الإسكندرية تحديدًا. مهنة رائجة في اليونان، نقلها معه

أبناءُ الجالية اليونانية، ربما كنوعٍ من التكافل الاجتماعي فيما بينهم. ثم اتسعت الدائرة، فأقدمَت الهيئات والمؤسسات المصرية على إصدار أوراق اليانصيب لزيادة مواردها، وتعالَت في شوارع الإسكندرية صيحات الباعة: الإسعاف ... المبرَّة ... المواساة. كنت أكره اليانصيب، وأكره حتى الباعة الذين كانوا يعرضون على أبي كلَّ ما بحوزتهم من أوراق، يثقون أن توقُّعَ «الحظ»، وما يتصل به، يدفعه إلى شراء الأوراق. يضع بيدي حصيلةَ كلِّ يوم، عصر اليوم التالي، لتبيُّن ما إذا قد فاز بجائزة ما. وكنت أُبدِّل قدمي من التعب في وقفتي أمام دكان السجاير الصغير بشارع التتويج. بيدي قائمة أوراق اليانصيب التي اشتراها أبي، أراجعها على قوائم الأرقام، أسماء غريبة ولا حصر لها: الفراشة ... الذبابة ... الجعران ... النحلة ... إلخ. أعود — في الأغلب — بلا أرقام فائزة، وأعود — أحيانًا — برقم فاز بجنيهَين أو ثلاثة. يُعلن أبي فرحته بينما يكون قد دفع ثمنًا للأوراق — في اليوم نفسه — عشرة جنيهات أو أكثر!

كان اليانصيب، أو «اللوتارية» مأساةً نحياها، ونُعاني تأثيراتها السلبية القاسية، لكنها تحوَّلت في حياة أبي إلى إدمان لا يقوى على التخلُّص منه. وكان الجيران يُشفقون من طوابير الباعة الذين يسعَون للتخلص من كل ما بحوزتهم من أوراق، فيتسللون إلى شقتنا في الطابق الثالث، يتركون أبواب الشقق مفتوحةً ليُتاح رؤية الصاعدين إلى أبي، وطردهم. وكان أبي يجد فيما يفعله الجيران تدخُّلًا معيبًا في حياته!

لستُ أذكر متى أُصيب أبي بالربو. عايشتُ — منذ طفولتي — توالي الأزمات في صدره. كان يتنفس بصعوبة، ويُطالبنا بفتح النوافذ لدخول الهواء، فلا يهدأ صدرُه إلَّا بحقنة الأدرينالين، أو قرص الإفيدرين، وغيرها من أدوية الربو التي كان يبعث بي لشرائها من صيدلية الإسعاف بشارع التتويج. كانت الأزمات متوالية، وقاسية، ينعكس تأثيرها — وتوقعاتها — على الوجوه، ويتملكنا عجزٌ حقيقي عن فعل أي شيء.

هل عانى أبي ما عاناه نتيجة تناوله المستمر للقهوة؟ ...

النصيحة الطبية تقول: إن الإدمان على تناول القهوة بشكل مستمر، يومي ودائم، وبكميات كبيرة، يترك الكثير من الأضرار والعوارض المرضية، في مقدمتها اضطراب الجهاز العصبي فيثور مدمن القهوة لأتفه الأسباب — وكم عانينا من ثورات أبي — فضلًا عن عدم انتظام ضربات القلب، وقلة النوم، والحياة في أسر قلق دائم ... إلخ. عرفت من الصور والمذكرات الشخصية التي خلَّفها أبي، أنه كان يحاول العلاج من مرض الربو، والفسحة

— في الوقت نفسه — بصيد البط في كنجى مريوط (٣٥ كيلومترًا من الإسكندرية) أيامًا تبلغ العشرة أحيانًا، ثم يعود بكُتُبِه وأوراقه ومعدات صيده. وكان المعنى الذي يؤكده عقب كل المرات التي زار فيها كنجى مريوط، وإن تغيَّرت الكلمات: تحسُّن الحالة الصحية!

وقد صحونا — ذات ليلة — على «صوات» أمي يُعلن وفاةَ أبي. علَت الأزمة في صدره، حتى اختنق تمامًا …

لم أكن أُدرك معنى الموت، وإن تملَّكني خوفٌ للكلمات والتصرفات التلقائية التي واجهَت بها أمي الموقف؛ فهي تصرخ في عيوننا المبحلقة: أبوكو مات يا ولاد! … ونحن نقرض أظافرنا في عصبية وانعدام حيلة، وهى تلطم خدَّيها في تواصل، ونحن نُسلم أيدِيَنا إلى الجيران، يُغلقون علينا باب الشقة المجاورة، وهي تدفع الباب في هستيريا: خلِّيهم يشوفوا أبوهم، ونحن نتلاصق في خوف من المجهول … ويحاول عم نجيب الدخاخني — رب الأسرة المجاورة — إقناعنا بالنوم، لكن الدقائق، فالساعات، تمضي، والأصوات — في شقتنا — عالية، صاخبة، متلاغطة، والموت معنى كبير مخيف، وإن غاب عنَّا فهمه. ثم يفتح الباب فجأة، وصوت أمي يسبق خطواتها: أبوكوا عايش يا ولاد … أبوكو عايش! … وتقودنا الأيدي المترفقة إلى حيث أبي. كان قد استند بظهره إلى أعمدة السرير النحاسي. وبدا لنا المشهد غريبًا، وغير مألوف. ألفنا رؤية أبي في مقعده، فهو — طيلة بقائه في البيت — لا يكاد يغادره، ينشغل بأوراقه وكتبه وقواميسه التي شغلَت كرسيًّا مجاورًا، أو يُعِد لنفسه فنجان القهوة (نصحه الطبيب بأن يتناول مشروبًا ساخنًا، ليحرِّك البصاق الساكن في صدره، فاعتبرها فرصةً، واكتفى بالقهوة مشروبًا وحيدًا، يتناوله كلَّ دقائق!) أو يُدير الكرسيَّ المقابل، فيُسند ذقنه إليه، وينام. كانت تلك — منذ وعيت — طريقةَ نومه، فلا يغيِّرها. بدا لي المشهد غريبًا إذن، فلم أكن رأيت أبي من قبل على السرير، نائمًا أو جالسًا. وكانت محاولته لأن ينام — كما علمت — هي باعث الأزمة، التي رأى فيها الموت فعلًا!

ربما كانت وفاة أمي التي صوَّتت قبل سنوات لوفاة أبي، ومرض أبي الدائم، والأزمة التي تصوَّرت أمي أنه قد مات بتأثيرها؛ فالأزمات التالية — في حياة أمي — وبعد موتها … هي باعث ترقُّبي لرحيله. كان يكبرها بسنوات. وكانت أزمات الربو تتوالى على صدره المتعَب، فبدا لي دنوُّ أجله في الأفق القريب. وكنت أُحدِّق في ذلك الأفق كل صباح.

كانت الأزمة تُفاجئه، فيختنق، ويستغيث بنسمة هواء، أو تأتيه إغماءة — ولعله كان ينام — وهو سائر في البيت، فيسقط، وكان دائم الحديث — بإشفاق — عن مستقبلنا …

وجعل ذلك كلُّه وفاةَ أبي حدثًا في قبضة اليد. أصحو، فأُطِل من الباب الموارب، أطمئن إلى نومه على الكرسي، وأنفاسه التي تعلو بها حساسية الصدر. وإن حرصت فلم أُظهر ذلك التخوف الدائم من أن يُفاجئَنا أبي — يومًا — بالرحيل. لم أُصارح إخوتي، ولا أيَّ أحد.

ومع أن الأعوام طالت بأبي وهو يعاني أزماتِ المرض، فإنَّ تخوُّفي من رحيله — المفاجئ! — ظل هاجسًا أحيا في إساره غالبية أيامي، وأحرص على عادتي اليومية — أصبحت عادة! — بالنظر من الباب الموارب إلى جلسته النائمة، الثابتة، على الكرسي!

ثم مات أبي — فعلًا — في يناير ١٩٥٥م. ولم يكن معه سوى شقيقي الأصغر. كان يراجع بعض المفردات في قاموس الفرنسية، عندما أدرك دنوَّ الأجل. طلب من أخي أن يستدعيَ جارةً لنا في الطابق الأول. وصعدَت الجارة — اسمها، فيما أذكر، أبلة عزيزة — لتسمل عينَيه.

وقد عانى أبي — في أيامه الأخيرة — تربُّصَ الآخرين به؛ فهم يحاولون قتله. يطمئن إلى إغلاق النوافذ والأبواب، يتطلع — في عز الليل — من خصاص النافذة إلى الطريق، ويعطي انتباهه لكل صوت، ويشدِّد في السؤال عن شخصية الطارق، وطلب من شقيقتي أن تسأل — بعد وفاته — جارَ الطابق الأول عن السر الذي صارحه به أبي. وسألَت شقيقتي الجار، فاكتفي بالقول: ولا حاجة! فلما ألحَّت شقيقتي في السؤال، قال الرجل — في غير تصديق — أخبرني أبوك أنه ربما لن يموت ميتةَ ربه؛ فسيغتاله آخرون! …

وكانت تلك الأحداث — فيما بعد — إطارًا لقصتي «تكوينات رمادية».

دمنهور ٢٠ أغسطس ١٩٢٢

حبيبي لطفي بك

سلامي إليك مع قبلة أهديها إلى فمك الجميل
منه قلب مفعم بحبك ثم لك شكري وثنائي الجزيل
على مراحمك التي دعت إلى المثال فيالك يا لطفي من
طيب القلب والسريرة

حبيبي: وصلني هديتك أمس البارحة مع والدي
فأقدم لك عظيم شكري على احترامك الزائد لي
وعلى كل حال أنا معذور منك يا روحي ولا
تتعاطى هذا مرة ثانية إذا والدي أعطى إلى الورقة
وأمرني بأن لا أفتحها وأن أخذها الدواء ففتحتها
وإذا بها علبة صغيرة والباخ شكولاته
سر كالا لأنه فضحكنا جميعا وخصوصا والدي
لأنه لم يعلم بشيء وقال أما نادر لطفي
افندي لطيف جدا!!

معبودي: قبّل لي كلما أتذكر

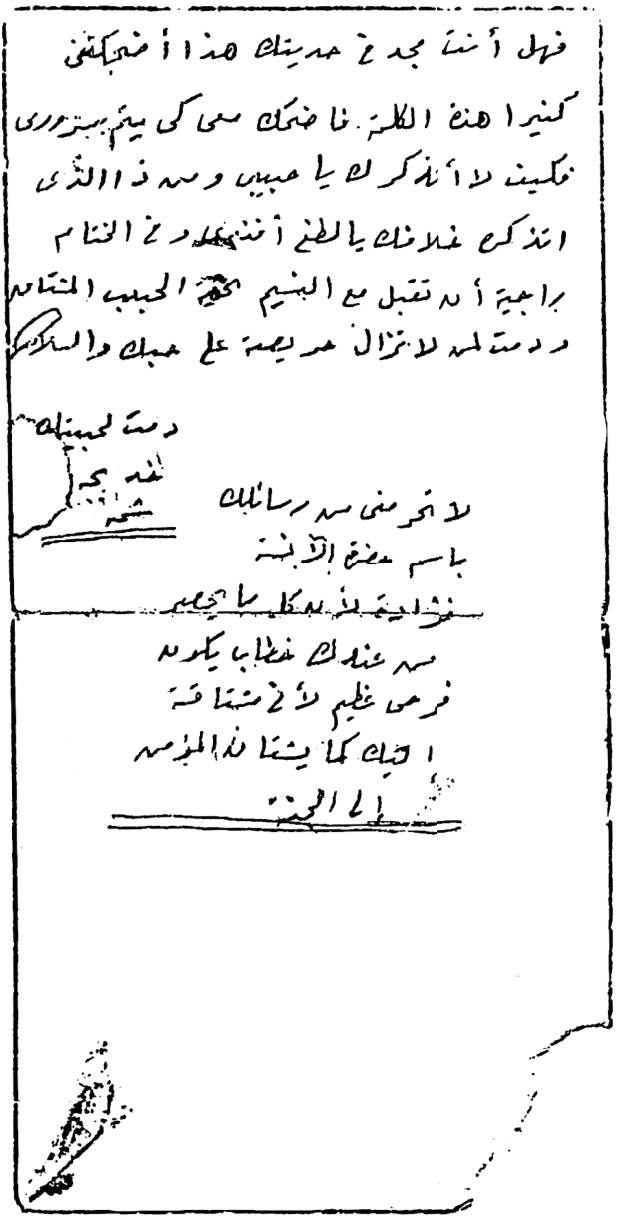

(نموذج رقم ٧٦ «سفانية»)

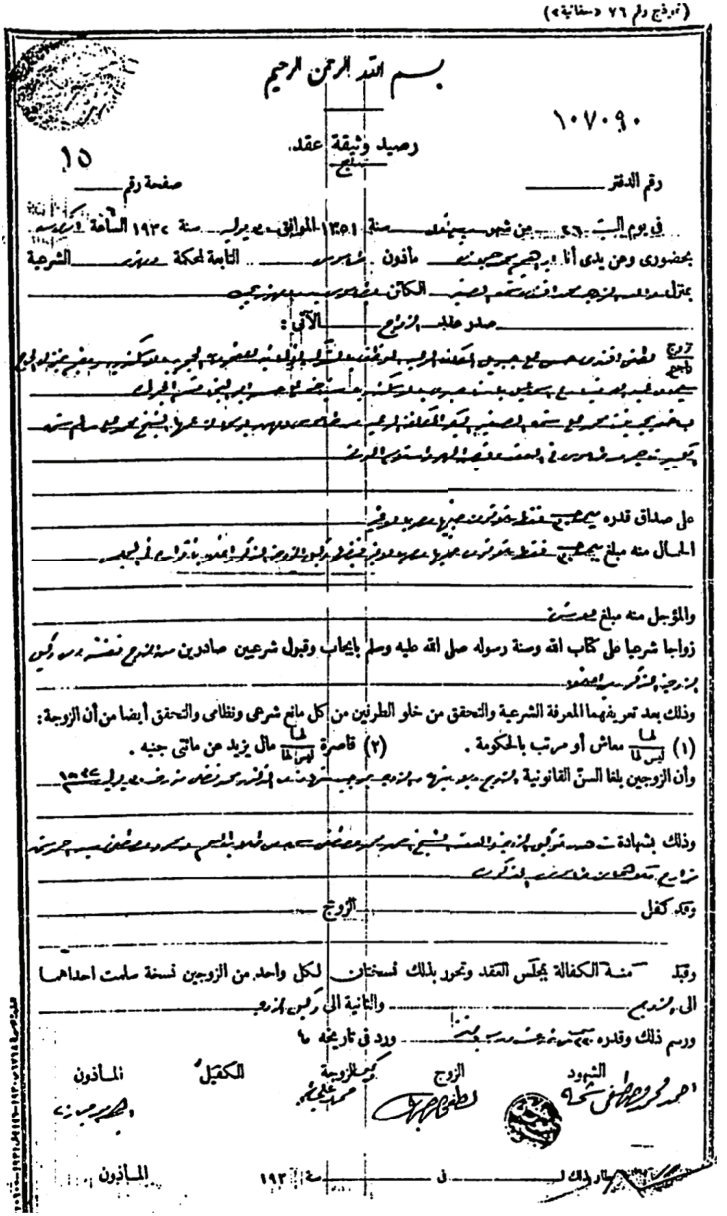

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٧٠٩٠

رصيد وثيقة عقد

١٥

رقم الدفتر _____ صفحة رقم _____

في يوم السبت ٢٦ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥١ الموافق ٢٩ يوليه سنة ١٩٣٢ الساعة ١٠ صباحا بحضوري ومن يدي أنا ابراهيم حسن ماذون مركز _____ النائبة لمحكمة مصر الشرعية بمقر وظيفتي الكائن بقسم الوايلي الكائن بمركز مصر حضر

صدر عليه الزوج الآتي:

الزوج وكيل الزوجة محمد علي

قد اتفق مع وكيل الزوجة المذكورة على أن يكون المهر المعجل والمؤجل

على صداق قدره

المال منه مبلغ

والمؤجل منه مبلغ

زواجا شرعيا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بإيجاب وقبول شرعيين صادرين من الزوج

وذلك بعد تعريفهما المعرفة الشرعية والتحقق من خلو الطرفين من كل مانع شرعي ونظامي والتحقق أيضا من أن الزوجة:

(١) ليست لها معاش أو مرتب بالحكومة. (٢) قاصرة ليس لها مال يزيد عن مائتي جنيه.

وأن الزوجين بلغا السن القانونية

وذلك بشهادة

وقد كفل الزوج

وقبل منه الكفالة بمجلس العقد وتحرر بذلك نسختان لكل واحد من الزوجين نسخة سلمت احداهما الى المذكور والثانية الى المذكور

ورسم ذلك وقدره ورد في تاريخه

الشهود

الزوج

الوكيل

الماذون

ماذون

المأذون

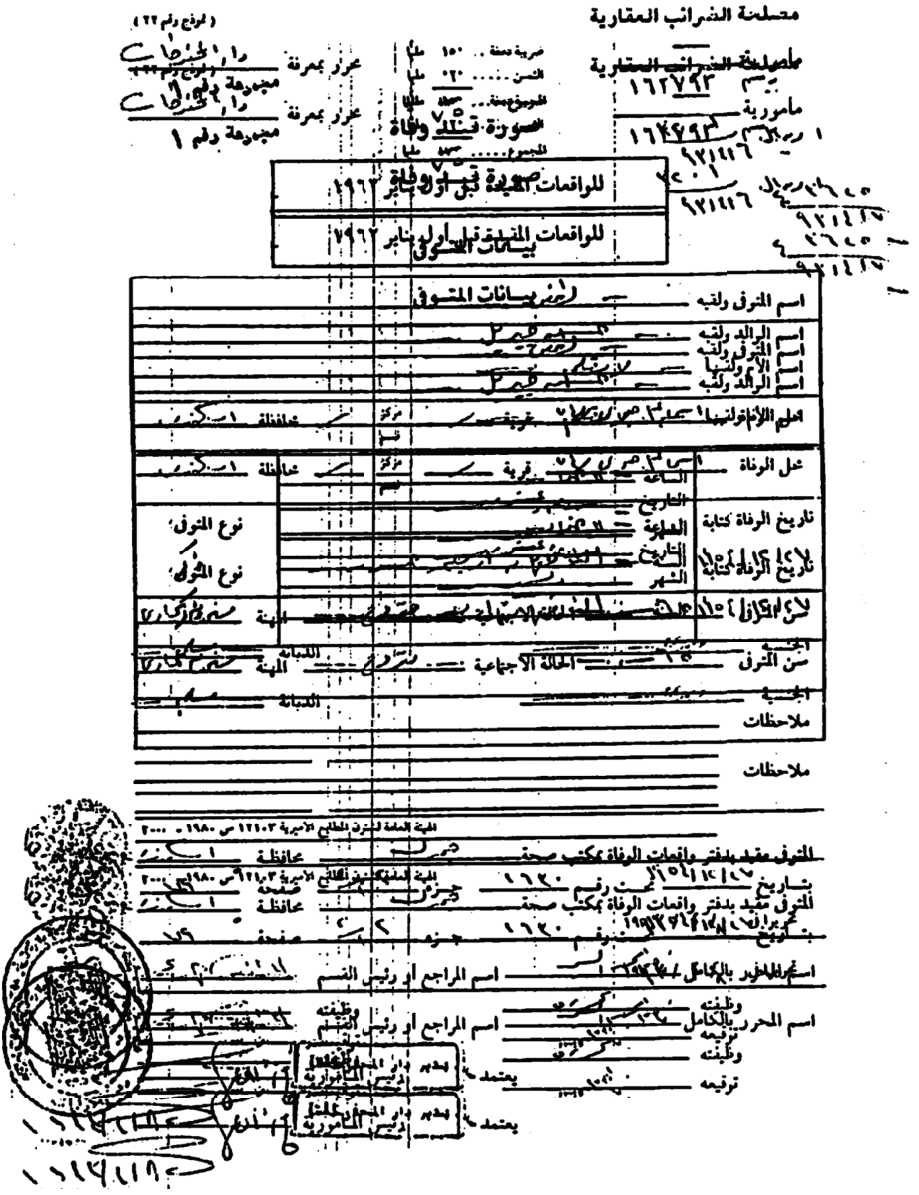
مصلحة الضرائب العقارية

(نموذج رقم ٢٢)

للواقعات الحيوية قبل أول يناير ١٩٦٢

للواقعات المتعلقة بيانات المتوفى

اسم المتوفى ولقبه

اسم الوالد ولقبه

اسم المتوفى ولقبه

اسم الأم ولقبها

اسم الزوج ولقبه

محل الوفاة

تاريخ الوفاة كتابة

نوع المتوفى

سن المتوفى

الحالة الاجتماعية

ملاحظات

المتوفى مقيد بدفتر واقعات الوفاة بمكتب صحة

اسم المحرر بالكامل

وظيفته

ترقيمه

يعتمد

قاضي البهار

عرفت اسم «قاضي البهار» — للمرة الأولى — عقب ثورة يوليو. أُلغيت الأوقاف الأهلية، فأصبح واجب المستفيدين أن يقدِّموا إلى وزارة الأوقاف شجرة العائلة، بحيث يتأكد قرابتهم إلى صاحب الوقف. وبادر عمٌّ لي (إبراهيم جبريل المهندس بمصلحة التليفونات آنذاك) إلى استخراج شجرة عائلة، جذرها الأصلي هو زين الدين قاضي البهار جبريل، صاحب الأوقاف التي أفادت منها عائلة جبريل، بتوزع أغصانها وأوراقها لأجيال تالية.

الأوقاف الأهلية — كما تعلم — هي «العين الموقوف ريعها لانتفاع أفراد عائلة، على التعاقب، شريطة أن يئول هذا الحق — عند انقراض المستحقين — إلى غرض ديني أو خيري». وبالطبع، فإن المستحقين لم ينقرضوا، بل تضاعفوا، وانتشروا في الأرض، وأقاموا في المدن والقرى القريبة والبعيدة، حتى تقطَّعت الأواصر بين الفروع، فلم تبحث عن الأصول إلَّا عندما كان ذلك البحث شرطًا لحصولها على الأوقاف التي تركها ذلك الجد القديم: زين الدين قاضي البهار جبريل.

وأذكر أن عمي — في رحلة البحث عن الأصول — كان يروي لنا لقاءاتِه مع أفراد من عائلة جبريل، لم يسمع، أو يلتقِ بهم، من قبل، أطباء ومهندسين وعُمَد وتجار وحرفيِّين وصغار موظفين. وبعد أن أتمَّ شجرة العائلة تمامًا، توضَّح له — ولإخوته! — أن قاضي البهار قصر أوقافه على فرع واحد من العائلة دون بقية الفروع، فلم يَعُد من حقهم أن يحصلوا على شيء!

مع ذلك، فإن اسم «قاضي البهار» ظل في ذاكرتي لا يغادرها، يرتبط بقراءاتي المتنوعة في كتب التراث، بتصوراتي لنشأة عائلة جبريل: هل هي مصرية خالصة، أو أنها — كما قال لي أبي — وافدةٌ من إحدى دول المغرب العربي؟ وما الصلة بين جبريل في الإسكندرية

والسودان وبلاد العرب؟ ... ثم فرض الاسم نفسه — أخيرًا — بطلًا متفردًا في روايتي القصيرة «قاضي البهار ينزل البحر».

المؤكد أن قاضي البهار ليس مصريًّا. والأرجح أنه وافد من المغرب. في كتاب ابن عطاء الله السكندري «لطائف المنن» نعرف أن من بين الأولياء الذين صحبوا أبا الحسن الشاذلي في رحلته من المغرب إلى مصر، الشيخ أمين الدين جبريل، وله مثل بقية أصحاب الشاذلي، علوم وأسرار وكرامات ... فهل يكون هذا الولي هو بداية آل جبريل في الأرض المصرية؟ ... أو أن الأمر أسبق من قدوم أمين الدين جبريل إلى البلاد؟ ... أو أنَّ جدَّنا قاضي البهار هو البداية للأمر كله؟

لعل أحد التخمينات هو الأصح، ولعلها جميعًا خطأ.

وفي حي باب الشعرية حارة باسم «قاضي البهار». لا أدري متى كانت التسمية، ولا بواعثها ... هل لأن جدي العزيز كان يسكن في الحارة، أو بالقرب منها، أو لأن عمله كان في الحارة؟

الاحتمال الأول هو الأرجح؛ لأن الأوقاف التي خلَّفها جدِّي قاضي البهار، اقتصر غالبيَّتُها على حيِّ باب الشعرية.

لا شك أن الوجود المغربي في مصر سابقٌ على العصور الحديثة. بالتحديد منذ قصد المغاربة مصر في طريقهم إلى بيت الله الحرام، فضلًا عن المكانة الدينية التي يمثِّلها المشرق بصفة عامة.

كان أول قدوم المغاربة إلى مصر عندما غزاها الفاطميون، وقامت الدولة الفاطمية على أكتاف هؤلاء المغاربة. ويقول المقريزي: إن جوهر الصقلي «لم يدَع مالًا إلَّا جعل فيه مغربيًّا شريكًا لمن فيه» (المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص٧٨). وثمة تجار من المغرب والأندلس كانوا يأتون — عبر الأراضي المصرية — بتوابل الهند وطرائف السند والعراق إلى أفريقيا والأندلس. ويُجمِع المؤرخون على أن أعداد الوافدين من المغرب والأندلس تزايدت في أعقاب استيلاء النصارى على الأندلس. وكان من بينهم حرفيُّون وفنيُّون في الصناعات المختلفة، وتجار. وكان من الوافدين — منذ بدايات العصر الفاطمي، والأسماء مبثوثة في كتب التراث — الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على اللخمي الميورقي الشافعي، أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي، أبو عبد الله

محمد بن لب الشاطبي، أبو الحسن على بن أحمد الهواري الفاسي، أو عمران موسى بن عيسى الغجومي الفاسي، أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتي، أبو الوليد يوسف بن مفضل القذافي، الشيخ أبو مدين الغوث، أحمد بن عبد الله بن هشام بن الحطيئة اللخمي، الحافظ محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمي المراكشي، أحمد بن على الحسيني البدوي، محب الدين محمد بن عمر رشيد السبتي، عبد الرحمن بن خلدون، أحمد بن المقري التلمساني، أبو مدين شعيب بن عبد الرحمن الدكالي، أبو الحسن على بن محمد الأخفش المغربي الشاعر، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن هانئ، وعشرات غيرهم.

ربما كان «قاضي البهار» واحدًا من هؤلاء الوافدين. ولا أدري — إن كان كذلك — هل كان شيعيًّا، مثل كل المغاربة حينذاك، أو أنه كان سنيًّا؟!

استمرت العلاقات الودية بين مصر والمغرب في عهود المماليك. وظلت الإسكندرية — بالإضافة إلى موقعها البري — أهمَّ محطة بحرية بين المشرق والمغرب. وكانت دائمًا مهبطَ علماء المغرب والأندلس. ومن هنا كانت تسمية العرب للإسكندرية: بوابة المغرب.

كانت فاس هي مدينة البداية للحجاج المغاربة إلى البيت الحرام، فهل كان قاضي البهار ضمن رَكْب الحج الفاسي — نسبةً إلى فاس — وتمييزًا له عن وفود ثلاثة أخرى من الجزائر وتونس وطرابلس؟

كانت الرحلة من المغرب إلى الإسكندرية — أو القاهرة مباشرة — خاصة من طرابلس، عبر الصحراء الغربية، هي أقسى ما في الرحلة عمومًا، ومدتُها ما بين خمسة وأربعين يومًا إلى ثلاثة أشهر. يقول أبو القاسم الزياني: «لما نزلنا على مرحلة من مصر، خرج أهل مصر لملاقاة الركب والتبرك بمباشرة الحجاج. ومَن له قريب، قدَّم له مركبًا مزيَّنًا للوصول عليه للمدينة، لأن مراكبهم لا تبلغ إلَّا ضعيفة من كثرة التعب والسهر وقلة العلوفة والماء.» كان طول مسافة الرحلة يُحتِّم على المسافرين قضاءَ فترات، تقصر وتطول، في مصر، انتظارًا للخروج مع قافلة الحج. الأمر نفسه في رحلة العودة من الأقطار الحجازية. وربما تحولت الإقامة الطارئة — بالمصاهرة أو بالتجارة — إلى إقامة دائمة، في أعقاب رحلة الإياب، وقبيل رحلة الذهاب. وكان الحجاج الذين يصلون الإسكندرية، ينزلون — مدةَ إقامتهم بها — في زاوية أبي محمد صالح، ولهم فيها أوقاف. وثمة مَن كان يفضِّل الإقامة — عند الوصول إلى

القاهرة — في الوكائل مثل الغوري وغيرها، إن لم يُتِح ضيقُ الوكائل لغير التجار إمكانيةَ السكنى فيها. وكانت أعدادٌ أخرى تسكن حيَّ طولون لقربه من سوق الدواب في الرملة، وما يحتاج إليه الحاج من أمور السفر. أما بقية الحجاج، فقد كان شاغلهم السكنى قرب الأزهر الشريف، نشدانًا للجو العلمي والروح الدينية، والالتقاء بالعلماء وطالبي العلم من كل الأقطار الإسلامية. وثمة العدد الأقل من الحجاج كانوا يأتون إلى الإسكندرية عن طريق البحر. وكان الحجاج المغاربة يقضون في القاهرة حوالي الشهر، كي ينضموا إلى موكب الحجاج المصري الذي كان يغادر القاهرة في شوال، أو ينتظرون فترة أطول لمن كان يفضل السفر إلى الأراضي الحجازية عن طريق البحر من القلزم (السويس).

أما لماذا كان المغاربة ينتقلون إلى مصر، ولا ينتقل المصريون إلى المغرب، فلأن مصر — كما قلت لك — كانت طريق الحجاج المغاربة، يقضون في مدنها فتراتٍ تطول أو تقصر، يتعرَّفون إلى مظاهر الحياة، ويزورون الجوامع وأولياء الله الصالحين: السيدة نفيسة، والشافعي، وابن الفارض، وابن عطاء الله، والبوصيري، والمغاوري، وغيرهم، ويُقيمون الصداقات مع الأفراد المصريين والأُسَر المصرية، وربما يعقدون صفقات مع التجار المصريِّين. وقد يتردد أحدهم على رواق المغاربة بالأزهر الشريف، فينهل من العلم حتى يُجيزَه الأستاذ. ويعود الحجاج المغاربة إلى بلادهم، في حين يتخلَّف — كلَّ عام — بضعُ عشرات أو بضع مئات، يُؤثِرون الإقامة الدائمة. وتذوي — ثم تنتهي — الصلات بينهم وبين الوطن الأم.

ولم يكن الحجُّ وحدَه باعثَ اختيار آلاف المغاربة مصرَ وطنًا ثانيًا، دائمًا. فقد هاجر إلى مصر عشراتٌ من طلبة العلم، والفارين من الاضطهاد العثماني، ساعد على استقرارهم جميعًا في المدن المصرية أنها كانت قسمًا من البلاد العثمانية التي يُعَد المغرب كذلك قسمًا منها، فهم يُقيمون في قطعة من أرض الخلافة، في جزء من أرض الخلافة، في جزء من الوطن الإسلامي الكبير. وكان للعلماء المغاربة تأثيراتٌ مؤكدة في تكوين الطرق الصوفية في مصر.

استقر المغاربة في أحياء القاهرة. تركَّزت جماعاتهم — بصفة خاصة — في أسواق الجمالية والفحامين ووكالة الكحكيين وباب الشعرية وقناطر السباع وبولاق وطولون، وفي عدد من الموانئ المطلَّة على البحر المتوسط، مثل الإسكندرية ورشيد ودمياط. وأنشأ المغاربة عددًا من الأسواق والوكائل التجارية، مثل سوق المغاربة الذي أنشأه في منتصف القرن

التاسع عشر، التاجر التونسي يوسف بن شعبان، وسوق الكانتو الذي تملكه عائلة الراكشي المغربية، ووكائل الشيخ إبراهيم، وغيرها. ويُشير الجبرتي إلى أن النشاط الأساسي للمغاربة في التجارة، تحدَّد في تجارة البن والبهارات (اسم جدي: قاضي البهار) في الغورية وطولون، فضلًا عن النعال المغربية والبُلَغ. وكما يروي المؤرخون فقد استطاع المغاربة تكوينَ ثروات طائلة، تحققت لهم بها مكانة اجتماعية متميزة. بل إن الدكتور يونان لبيب رزق يَصِف التجار المغاربة بأنهم كانوا يشكِّلون العمود الفقري للطبقة البرجوازية في مصر.

وحتى الآن، فإن المدن المصرية تشغي بلافتات مثل «شارع المغربي»، و«حارة المغاربة»، و«عطفة المغاربة»، فضلًا عن سوق المغاربة الشهير في مدينتي: الإسكندرية. كما أن أوجه التشابه لا تزال قائمةً بين البيئتين المغربية والمصرية: الجلابة والجلباب، الطاقية والعمامة، الشال والسلهام والعباءة، وأثاث البيت؛ كالكنبة البلدي والصندوق والأواني كالطاس والإبريق والطاجن، حتى الحِلَى التقليدية؛ كالخلخال والأسورة والخاتم وغيرها. ومن مشابهات الأمثال المصرية والمغربية في مصر: أذكر الكلب وف إيدك عضمه ... وفي المغرب: أذكر الكلب ووجد له عظم ... وفي مصر: إذا شفت اتنين متفقين إعرف ان القلب على واحد ... وفي المغرب: إذا شفت زوج من الناس متعاشرين إعرف باللي الدرك على واحد ... وفي مصر: إذا لقيت الغالي في السوق تمِّنه ... وفي المغرب: كيل العالي ولو كان غالي ... وفي مصر: إذا كان المتكلم مجنون يكون المستمع عاقل ... وفي المغرب: إذا كان المتكلم مهبول يكون المنصت عاقل ... إلخ.

الإسكندرية هي أقرب المدن المصرية الكبرى إلى المغرب، فضلًا عن أنها كانت ميناء مصر الرئيس — بل أولى الموانى المصرية من ناحية الشمال الأفريقي، قبل اختراع الطائرات في مطالع القرن العشرين. لهذا، فقد استوطن الإسكندريةَ عددٌ كبير من أبناء المغرب، عملوا تجارًا وموظفين في الإدارات الحكومية.

أنشأ سوقَ المغاربة بالإسكندرية، في أواسط القرن التاسع عشر، تاجرٌ تونسي اسمه يوسف بن شعبان. ومن روايات أبي، أن أحفاده يشغلون معظم محال السوق حتى الآن. وكان السوق يعتمد — في تجارته — على صادرات المغرب من الأصواف والماشية، وعلى ما تُصدره السوق إلى المغرب من المنسوجات والسلع المختلفة. ولا يخلو من دلالة اسم «سوق المغاربة» بالقرب من المنشية. كان هذا السوق — كما روى لي أبي — مقصورًا — أو كاد — على التجار المغاربة، هؤلاء الذين وفدوا من المغرب، فقرروا الإقامة في مصر — لسبب أو لآخر — في رحلة الذهاب إلى الحج، أو العودة منه. وغالبية أولياء الإسكندرية ينتمون

إلى أصول مغربية. وفي مقدمتهم المغاوري والبوصيري والحلوجي وغيرهم، بل إن معظم الطرق الصوفية بالمدينة، يمتدُّ أصولها إلى أقطاب من المغاربة؛ كالشاذلية والتيجانية والسنوسية والعبسوية والزيانية وغيرها ... وأسماء: السيالة، الراكشي، غزالات، مدورة، النديم، كرموس، غبريال، كلها أسماء مغربية، بالإضافة إلى أماكن أخرى تبين عن التأثير الغلَّاب للوافدين المغاربة في مجتمع الإسكندرية. وكان ممثلو الإسكندرية في عهدَي إسماعيل وتوفيق، جميعهم من المغاربة: الشيخ مصطفى خليل جميعي، السيد عبد الرازق جميعي الشوربجي، السيد إبراهيم على جميعي، السيد سليمان المغربي، السيد سعيد الغرياني، عبد الحميد أفندي البيطاش. بل إن صديقي الشاعر السكندري عبد العليم القباني يرجع الحدَّة التي تتسم بها طباع أبناء الإسكندرية — أحيانًا — وأنهم قد يثورون ويغالون في ثورتهم، إلى معاشرتهم الطويلة للمغاربة.

وعلى توالي الأعوام، مارس الشعب المصري خاصيته العجيبة. امتصَّ العائلاتِ والأُسَرَ ذات الأصل المغربي، فلم يَعُد من انتمائها إلى المغرب سوى الاسم أو اللقب، وأصبحت عائلاتٍ وأُسَرًا مصرية، تنتسب إلى مدن وقرى في قلب مصر.

بحري

مع أن الإسكندرية كانت هي الميلاد والطفولة والنشأة، فإني لم أجاوز «الموطن» — في أيام الصبا — إلَّا نادرًا ...

الموطن هو منطقة بحري التي تبدأ بما يلي ميدان المنشية، وتتجه إلى ميادينَ وشوارعَ وحوارٍ وعالمِ حياة، في الموازيني، وأبو العباس، والبوصيري، والسيالة، وحلقة السمك، والمسافرخانة، والمغاوري، والحلوجي، والعدوي، وقبو الملاح، والتمرازية، والكورنيش، وسراي رأس التين. سُميت بقسم — أو حي — الجمرك، لوجود أبواب المنطقة الجمركية بها، فضلًا عن العديد من شركات النقل والتوكيلات الملاحية والمستودعات، وعمل عدد كبير من أبناء الحي في الأنشطة المتعلقة بالميناء من نقل وتخزين واستيراد وتصدير وتفريغ للسفن. وثمة فئات يرتبط عملُها بالبحر الذي تُطل عليه المنطقة من ثلاث جهات، كالحمالين والصيادين والبحارة والعاملين في الدائرة الجمركية، ودكاكين بيع أدوات الصيد، وتجار الأدوات البحرية.

تلقيت تعليمي الباكر في كُتَّاب الشيخ أحمد، المجاور لبيتنا. تغيب تفصيلاتُ الذكرى في الأعوام الثلاثة، أو الأربعة التي لم أكن جاوزتها، وإن انثالَت إلى ذاكرتي — فيما يُشبه الأطياف — صورة الشيخ أحمد — هذا هو اسمه — صاحب الكُتَّاب، وعصاه التي لم تُؤذِ أحدًا، والتلاميذ في مثل سنِّي، والبناية القديمة في شارع فرنسا، ردهتها الواسعة في الطابق الأول، تُفضي إلى طابق علوي شغل كُتَّاب الشيخ أحمد إحدى غُرَفه ...

قال لي أبي — فيما بعد — (ماتت أمي قبل أن أبلغ العاشرة، فلم تُتَح لنا فرصة أحاديث الصداقة، التي يتبادلها الآباء والأبناء، بعد أن يجاوز الأبناء سِنِي الطفولة): كنتَ كثيرَ الاستئذان من الشيخ أحمد للعودة إلى البيت حتى تأكل فولًا! ...

أضاف أبي ضاحكًا: كم كنتَ — وما زلت — تعشق الفول المدمس! ...

لكن أبي ما لبث أن نقلنا — والـ «نا» تعني شقيقي الأكبر وكاتب هذه الكلمات — إلى روضة مدرسة مصر الفتاة، التي ما تزال — حتى الآن — في موقعها، وإن تغيَّر اسمها، بأول شارع صفر باشا، المُفضي إلى شاطئ الأنفوشي.

كانت شكوى المدرِّسة، فالناظرة (اسمها — فيما أذكر — فاطمة هانم. وكانت تركية في سحنتها وكلماتها وزيِّها، حتى النقاب الأبيض الشهير كانت تحرص على ارتدائه) من تبولنا اللاإرادي — شقيقي وأنا — في الفصل. كنت طفلًا، لكنني ما زلت أذكر حجرة الفئران التي أودعَتني فيها المدرِّسة لحظات، لم أحسَّ بها. انشغلت بصراخ هستيري، دفع المدرِّسة إلى فتح الغرفة. وأذكر الحريق الذي شبَّ — لحظات — أعلى المدرسة، وكانت من طابقين مرتفعين للغاية — بنايات زمان! — واختلط الصراخ والهرج وحالات الإغماء بين فتيات المرحلة الابتدائية. أذكر كذلك — لا أدري لمَ؟ — أظافر المدرِّسة الطويلة المطلية بالمانيكير. ثمة شعور بالنشوة كان يلفُّني وأنا أتأمل أظافرها، عندما تستند بأصابعها إلى الدرج، تحاول تَلْقِيني نشيدًا، أو آيات قرآنية. لا أذكر ملامح وجهها، ولا نبرات صوتها، ولا حتى ما كانت تُوجِّهه لي — أو لنا — من كلمات … لكنني أذكر جيدًا تلك الأظافر التي كانت تبعث في نفسي مشاعرَ مبهمة، وإن انطوَت على لذة مؤكدة!

ظل الدرس الأول في مدرسة البوصيري الأولية — بعد أن نقلني أبي إليها — في بالي طويلًا. طالبنا بألَّا نستجيبَ لإغراء ذبابة، تُعطينا قرشًا لتضعَ المرض في عيوننا. وتمنيتُ — بيني وبين نفسي — أن أُصادف تلك الذبابة، فأُيسِّر لها ما تريد!

والحق أن مدرسة البوصيري استطاعت أن تحفر في ذاكرتي العديدَ من الصور والأحداث، تُعاني التوزع واختلاف درجات الوضوح، وانعدامه أحيانًا، لكنها تركت في داخلي تأثيرات، ما زلت أخضع لها إلى الآن: مدخل المدرسة يُطلُّ على شارع الكناني المتفرع عن اليمين من شارع أبو العباس المرسي، وعن اليسار من شارع الموازيني. أما جزؤها الخلفي فيُطِل على سوق صغيرة تشغي بالحياة (قرأت — فيما بعد — رأيَ لويس عوض في المدارس الأولية، وأنها كانت أقرب إلى كتاتيب القرون الوسطى — الحرية ونقد الحرية ص٤٣ — وهو رأيٌ لا يخلو من عمومية، ومن تعسُّف. أزعم أني أفدتُ جيدًا من مدرسة البوصيري الأولية، ما تلقيته فيها كان هو الأساس الذي أُقيم فوقه كل ما تعلمته بعد ذلك). كان مدرسي جميل أفندي أول مَن تنبه إلى موهبتي الأدبية — أسمح لنفسي بادعاء هذه الصفة — وكان يُعاير بقية التلاميذ بجمال خطي (لأن خواطري — حين أخلو للكتابة —

أسرع من تلبية القلم، فقد ضاع جمال الخط الذي كان يعجب به جميل أفندي!) ويثني على موضوعات الإنشاء التي أكتبها، ويطالبني بقراءتها أمام التلاميذ. وكان يناديني — أحيانًا — بالأمير جبريل. حاولت أن أذكر تأثيرًا محددًا لجاد أفندي، مدرِّس الرسم، فلم أُوَفَّق. صورة الرجل في ذاكرتي كأني فارقتُه بالأمس: قامتُه الطويلة، الأقرب إلى النحافة، وبشرتُه السمراء، وطبيعته الهادئة ... ذلك كلُّه يرتسم في ذاكرتي جيدًا؛ ربما لأن الرجل كان دائمَ التردد على فصلنا، ولعله كان مشرفًا على الفصل حسب التعبير الذي تعرفه مدارسُنا الآن. الحوار المتبادل — بيني وبينه — في أمر يخصُّني، جرى مرة واحدة، لما أصدرت مجلة بخط اليد، عرضتُها عليه، فضحك لنكتةٍ سأل فيها أحدهم رجلًا أسمر البشرة: أنت سوداني؟ ... فقال الأسمر: لأ ... أنا حمص!

نكتة ساذجة كما ترى. لكن جاد أفندي ضحك — دون أن يغادر هدوءه المألوف — وقال في حماسة حقيقية: الواد لطفي — كانوا ينادونني أحيانًا باسم أبي — عنده أفكار كويسة!

أما بقية المدرِّسين فقد سقطوا من ذاكرتي تمامًا. لا أذكر إلَّا أنَّ أحدهم كان اسمه عطية أفندي، وآخر اسمه الزنكلوني، وآخرين لا أذكر حتى المواد التي كانوا يُدرِّسونها لنا، وإن كان من المستحيل أن أُهمل التأثير الباطش لعاطف أفندي نافع، ناظر المدرسة، إلى حدِّ أني كرهت الدراسة، وتمنيت الموت. كان قاسيًا بلا مناسبة، ويُعاقب بخيزرانة لا تُفارقه، لمجرد التلعثم في الإجابة — وكان التلعثم بدهيًّا في ظل صوته الزاعق، وعينَيه اللتين يُطل منهما غضبٌ دائم، وعصاه الملوحة أبدًا — وأتصور أن العيب الخلقي الذي كانت تُعانيه قدماه، فهو يستعين على السير بعصا، العصا لليد اليمنى، والخيزرانة لليد اليسرى ... ذلك العيب كان له تأثيره المباشر في عدوانيته الواضحة — وكانت مشاداته الكلامية كثيرة مع أولياء الأمور والمدرِّسين، ومع فراش المدرسة أيضًا ...

أحببتُ لعبةَ تنس الطاولة، وحققت فيها تفوقًا لا بأس به، فضمَّني جاد أفندي إلى فريق المدرسة، واستطعنا أن نُحرز المركز الأول على مدارس الإسكندرية — وإن اكتفيت بلبس المزيكا، فأنا لم أشارك في أية مباراة — لكننا انشغلنا بالمباريات، فأهملنا المذاكرة. فلما طلب الأستاذ نافع — ذات يوم — أن أتلوَ سورة تبارك، أدركني التعلثم، للخوف أولًا، ولأني لم أكن ذاكرتُها جيدًا.

قال بلهجة متوعدة: انطق!

– نسيتُ حفْظَها.

– لماذا؟

– كنت مشغولًا بمباريات البنج بنج.

تلازمَت صيحةُ الرجل مع خيزرانته التي هوَت على غير موضع محدد: بنج بنج — الجيم معطَّشة — إيه يا ابن الكلب؟!

بعدها، أسقطتُ تنس الطاولة من اهتماماتي، وإن لم أنسَ — في الحقيقة — ذلك الصبي الضامر الذي كان يقود الفريق — أذكر اسمه الأول: عبد العزيز — وكنت أنظر إليه آنذاك كأسطورة أو معجزة، وربما هي نفس نظرتي إليه الآن؛ فقد كان يسحق خصومه — كنت واحدًا منهم! — دون أن يُحرزوا أمامه نقطةً واحدة. وكان بوسعه أن يردَّ الكرة إلى الطاولة من وراء ظهره، وتنبأت له — تنبؤ صبي! — بأن يُحرز بطولة العالم في تنس الطاولة. نال فريق مدرستنا كلَّ جوائز الإسكندرية في تنس الطاولة، وزادت جرأتنا، فشاركنا في مباريات غير رسمية، كنَّا نضمن فيها الجائزة الأولى — ينالها عبد العزيز — ويتشارك بقية أفراد الفريق في الجوائز التالية. ثم انقطع نجمنا عبد العزيز فجأةً (كنت قد اعتزلت قبله بعلقة الناظر)، وذهب زملاؤه للسؤال عن بواعث مرضه، فالتقينا بوالده — وكان صيادًا يُعاني الكبر والفقر — فقال: عبد العزيز لن يعود إلى المدرسة.

– لماذا؟

– لأسباب أسرية.

وكان لغياب «الكابتن» عبد العزيز تأثيرُه المؤكد على تفوُّق الفريق أضعاف ما خلفه اعتزالي. أصبح حصول الزملاء على البطولات الثالثة أو الرابعة مطلبًا غاليًا، ثم عانقوا اليأس، وانصرفوا شيئًا فشيئًا عن المشاركة في المباريات. ثم حل الفريق نفسه.

ويومًا، كنت أمرُّ في أحد أزقَّة بحري. رأيت عبد العزيز على باب دكان نجار، يقلب الغراء الساخن في «الكوز». وعرفت أن الفقر هو الأسباب الأسرية التي حرمت تنس الطاولة من أنبغ لاعبيها.

غادرتُ مدرسة البوصيري دون أن أعرف سرَّ ذلك الضريح الذي كان يُطلُّ على فنائها. لم يكن يتوسط الفناء، أو يشغل جانبًا منه، وإنما شيد في ممر مرتفع نسبيًا، وثمة سور حديدي يفصل بينه — الممر — وفناء المدرسة. أثار فضولي موضعُه، وغموضه المثير، وتحوُّله — في معظم الأحيان — إلى جزء من حركة اللعب بين الأولاد. كانوا يقفون ويجلسون ويلعبون فوقه وحوله، دون أن يشغلَهم الجثمان الذي لا بد أنه كان يرقد تحته.

مَن الميت؟ ...

حاولت — بيني وبين نفسي — أن أُجيبَ على السؤال. الغريب أن المحاولة لم تجاوز التكهُّن بالإجابة، وضمَّنت إجابتي روايتي «ياقوت العرش» الجزء الثاني من «رباعية بحري». قلت إن الضريح قد يكون لسيدي الأنفوشي الذي سُمِّيَ الحيُّ العتيقُ باسمه. أما في رواية «قاضي البهار ينزل البحر» فإن الجسد المسجَّى في القبر لشخصية مجهولة، أو غير ذات شأن!

كان البيت الذي قضيت فيه أعوامَ طفولتي وصباي الباكر، يُطل — من جانبه الأيسر — على كورنيش الميناء الشرقية، ومجموعة القهاوي المتقاربة: المطري، وفاروق، وثالثة لا أذكر اسمها الآن، وترام رقم ٤ بين رأس التين ومحرم بك، وتُطل نوافذها الأمامية على شارع إسماعيل صبري، الذي ينتهي إلى أبواب الميناء الغربية. شاهدت — من النافذة المطلَّة عليه — خروج قوات الإنجليز من معسكراتها في رأس التين، والمظاهرات الصاخبة التي كانت تهتف ضد حكومات الأقلية والسراي، وتغنِّي: بلادي بلادي. صفوف متراصة، متشابكة الأيدي، كانت عيناي سريعتَي الاستجابة، تدمعان لها، ومواكب الطرق الصوفية احتفالًا بالمولد النبوي، أو مولد المرسي أبو العباس، وعربات الكارو التي تحمل جهاز العرائس في طريقها من المنشية وشارع فرنسا، إلى الأنفوشي ورأس التين. كلما زاد عدد العربات، زاد إحساس أهل العروس بالزهو، وربما وضعت على عربة واحدة ثلاث أو أربع «حلل»، واحتل «الطشت» — بمفرده — عربة ثانية، والكنبة عربة ثالثة، وهكذا. والنقرزان بلباسه السكندري: السروال الواسع، المنفوخ، الصديري الصغير فوق القميص ذي الكمَّين، يمشي أمام مواكب الزفاف والختان والموالد، يلعب بعصًا طويلة، يتلقاها على جبهته، أو أرنبة أنفه — وكانت فطساء — وربما وضع في نهايتها كوبًا ممتلئًا بالماء، فلا تسقط منه قطرة. ومن خلفه فرقة موسيقية قوامها ثلاثة رجال، أهمهم طبال يُحسن ضبط الإيقاع. الغريب أني طالما التقيتُ بالنقرزان أعوام صباي في شوارع الإسكندرية. فلما سافرت إلى القاهرة تكرر لقائي به أمام قهاويها، وفي شوارعها. وكان عفريت الليل يحمل عصاه المشتعلة، ويتنقل بين مصابيح الغاز، يتولَّى إشعالها الواحد بعد الآخر، نحيل الجسد — لا أذكره ربعةً أو سمينًا! — خطواته أقرب إلى الهرولة؛ فالشوارع كثيرة، وعليه أن يُضيءَ كلَّ الفوانيس قبل أن يحلَّ الظلام. كان الرجل جزءًا من حركة الطريق. لم يستلفت انتباهي، بل لم أفطن لغيابه إلَّا بعد سنوات، عندما تجدَّدت الأحاديث عن «عفريت الليل»، وذلك النداء الذي لم أُردِّده

يومًا: عفريت الليل بسبع رجلين! … وثمة النسوة اللائي كنَّ يرتدينَ «التوب» والطرحة، يُنادينَ على بضاعتهن: أقرا الودع، وادق واطاهر! … والمعنى بالنسبة لقراءة الودع واضح. أما الدق فهو دقُّ الوشم على الصدور والأذرع، وبالذات بين الأقباط الذين كانوا يحرصون على وشم باطن الرسغ بعلامة الصليب. وأما الطهارة فإن النسوة كنَّ صنوَ حلاق الصحة في إجرائها، وإن كانت طهارة الحلاق للصبية، أما طهارة النسوة فللفتيات الصغيرات. وأذكر أن امرأة أجرَت عملية الختان لخادمة في حوالي السابعة، كانت تعمل عند جيران الشقة المقابلة، وأصاب الطفلةَ نزيف، لم تملك المرأة إزاءه إلَّا أن تضعَ «غلقها» على رأسها، وتمضي مسرعة. ثم تعالى صوت الإسعاف بعد أن استغاث الجيران بها لإنقاذ الطفلة من الموت نزفًا! … وبالإضافة إلى الأنشطة المعلنة لهؤلاء النسوة، فقد كان لهن أنشطة أخرى، كنت — وأصدقاء مراهقتي — نُفيد منها. كنَّا نمارس ألعابنا في حدائق الشلالات: أولها إسكندراني والاستغماية وعنكب يا عنكب والبلي والنحل والطائرات الورقية. تقترب منَّا إحداهن قائلةً في لهجة إغراء: تتفرج بتعريفة؟ … وتتقاضى التعريفة، وتجلس القرفصاء على بُعد مترين أو أقل، وترفع ثوبها قليلًا، ويتحول الولد إلى عينَين تُطيلان التحديق، ثم يترك مكانه لزميل، وآخر … و«التعريفة» دائمًا تسبق المشاهدة. وتمضي المرأة، ونعود إلى بيوتنا، نحاول استرجاع ما رأيناه في ممارستنا المجنونة للعادة السرية، داخل الأسرَّة، أو في دورات المياه.

أما البلكونة والنوافذ الخلفية، فكانت تُطل على ميدان الخمس فوانيس وجامع سيدي علي تمراز. شهدت في الميدان آخرَ معارك فتوات بحري، تطايرَت فيها كراسٍ، وتناطحَت شوم ونبابيت، وسالَت دماء، وسقط صرعى وجرحى، وشال البوليس الباقين إلى حيث غابوا عن شوارع بحري. وحين بدأتُ في كتابة «رباعية بحري» حاولتُ أن أقدم عالم الفتوات، تعرفت إليه من خلال روايات قديمة لأبي، وقريبة لأبناء بحري الذين عاشوا فترة ما بين الحربين. وكان فتوات نجيب محفوظ دافعًا لأن أكتب عن فتوات الإسكندرية، رغم اختلاف المكان والزمان، وطبيعة الشخصيات، ومهنهم أيضًا! كانت «الفتونة» هي العمل الوحيد الذي مارسه فتوات نجيب محفوظ. عاشوا على البلطجة، وفَرْض الإتاوات، وافتعال المشاجرات، وخوضها لحساب الآخرين، في حين أنه كان لغالبية فتوات الإسكندرية مهنُهم التي تكسَّبوا منها، أما الفتونة فلم تكن سوى هواية، وسيلة لإثبات الشهامة والنخوة والمروءة والجدعنة. وكان عمل فتوات نجيب محفوظ في غيبة من السلطة، شغلهم الهرب والتخفِّي واللواذ بالأماكن النائية. أما فتوات الإسكندرية فقد كان تحدِّي السلطة حرصَهم

الأول. وكانت معاركهم في الساحات والميادين وعلى القهاوي، وأعلنوا الاحتقار لمن جعل الفتونة مهنته. وكان أبلغ ما يعتزُّ به حميدو فارس — مثلًا — ورواه الذين فوجئوا بالمشهد، أنه كبس طربوش المحافظ على رأسه، لسبب تصوَّر أنه يمسُّ كرامته. وأفدت من الحادثة في روايتي «الأسوار»، بيومي الدكر الذي كبس طربوش مدير المديرية على رأسه. وروى لي أبي كذلك، الكثيرَ عن فتوات الإسكندرية. غالبيتهم — أو أكثرهم شهرة — من بحري؛ حيث قضيت طفولتي وصباي: حميدو فارس وأبو خطوة والسكران، وغيرهم ممن تغيرَت بغيابهم في أعقاب الحرب العالمية الثانية صورة الحياة في الإسكندرية، وبالذات في أحيائها الوطنية.

كنت أتابع — من النافذة الخلفية أيضًا — خطبة الجمعة التي يُلقيها الشيخ عبد الحفيظ، أشهر خطباء الإسكندرية وقتذاك. وكان المصلون يَفِدون إليه من كل أنحاء الإسكندرية، ومن المدن القريبة مثل كفر الدوار ودمنهور؛ لأن الرجل كان يتناول في خُطَبه موضوعاتٍ سياسية، تعيب على الملك فسادَه، وعلى الحكومة سوءَ إدارتها، وتأخذ على المجتمعِ كلِّه أنه يتجه إلى الهاوية. وقد توضَّح عمقُ تأثير الشيخ عبد الحفيظ في أداء الملك فاروق صلاة الجمعة مرتين أو ثلاثًا في جامع سيدي علي تمراز. وكما روى أبناء الحي، فقد خلع الملك على الشيخ عبد الحفيظ بُردة، وعانقه بعد أداء الصلاة ... لكن الرجل لم يغيِّر لهجته الرافضة العنيفة المتوعدة ...

وأقبل الناس — ذات جمعة — ليُفاجَئوا بأن الشيخ قد نُقل إلى مسجد القائد إبراهيم في ميدان محطة الرمل. ولم تتغيَّر هناك طبيعة الخطب التي كان يُلقيها الرجل. وشكَت القنصلية البريطانية — القريبة من المسجد — أن المصلين يفترشون ساحةَ القنصلية، ومارسَت السلطات ضغطًا على الرجل، آثر معه أن يسافر إلى السعودية، ولم أَعُد أسمع — أو يسمع عنه أحد — شيئًا.

أما ميدان «الخمس فوانيس» فقد كان أهم ما يميزه سوق العيد الذي يمتدُّ طيلةَ شهر رمضان، وعيدَي الفطر والأضحى. كنت — وإخوتي — لا نملُّ الوقوف في البلكونة المطلَّة على الميدان. نشاهد المراجيح وألعاب النشان والحظ والقوة وباعة الحلوى والبالونات، تمضي الساعات بنا ونحن في أماكننا، لا نمل. بانوراما الحياة في سوق العيد متجددة التفصيلات، ربح وخسارة ونقاش وفصال ومشادات كلامية وبالأيدي. وشهدتُ في طفولتي القرداتي والسقا والكواليني والسنان الجوال ونبوت الغفير والعهد الذهبي لعربات الحانطور

والكارو، وطوابير التاكسي — في انتظار الزبائن — على نواصي الشوارع، واستمعت إلى التعبيرات والأمثال المغسولة بمياه البحر، وإلى نداءات الباعة المنغَّمة والمنظومة الكلمات. وأشهد لو أن عمَّ محمد الفكهاني ذي العربة الصغيرة المجاورة لجامع علي تمراز، والذي كانت تُطلُّ عليه نوافذ بيتنا الخلفية، لو أنه اختار في الحياة سبيلًا آخر، فأغلب الظن أنه كان سيصبح مطربًا. لا أستطيع أن أصنِّف صوته، أو أتحدَّث عن أبعاده ومقاماته ودرجاته ومدى عذوبته. يقصر وَعْيِي القاصر — آنذاك — عن تلمُّس ذلك أو مناقشته أو القطع فيه برأيٍ … لكن ما أذكره أن صوتَ عمِّ محمد الفكهاني كان يُطربني للغاية. وكنت أتعمد الجلوس في الغرفة البحرية المطلة على الشارع الخلفي، لأتابع نداءات عم محمد التي يُجيد انتقاء كلماتها، وإلباسها ثوبًا من العذوبة اللحنية والصوتية.

وأذكر أني ترددتُ — وإخوتي — كثيرًا على سرادق أحمد المسيري بشارع التتويج. لا أذكرُ المناسبات التي كان يُقيم فيها سرادقَه، لكنها — بالتأكيد — كانت كثيرةً، أهمُّها عيدَا الفطر والأضحى. يبدأ الحفل بأغنية عبد الوهاب الشهيرة: ياللي زرعتوا البرتقان … ياالله اجمعوه … آن الأوان … وينتهي بالأغنية نفسها. ويشارك في أدائها كلُّ أفراد الفرقة. أما فقرات الحفل فقد أهملَتها الذاكرة تمامًا. لا أذكر منها سوى أغنيات ورقصات واسكتشات غائبة الملامح، وبلا تفصيلات.

والحق أن الفرق الفنية كانت معلمًا مهمًّا في بحري، بدءًا بسرادق المسيري، وانتهاءً بقهوة العوالم في نهاية شارع إسماعيل صبري، مرورًا بالعشرات من الفرق الفنية.

كنت أتعرَّف إلى الجياد الملكية من وَقْع خطواتها، قادمةً من، أو متجهةً إلى، سراي رأس التين. خطوات منتظمة، تذكِّرني بها — الآن — موسيقى الصورة الغنائية «نزهة»: تك تك تك … تك تك تك … دول جوز الخيل والعربية … أنغامهم كلها حنية! … أما سيارات السراي فقد كنَّا نتعرف إليها باللون الأحمر الذي اقتصر عليها، فلا يؤذن لغيرها بذلك اللون. وعرفت — فيما بعد — أن الملك فاروق أمر باللون الأحمر طلاءً لسياراته، حتى يسهل على رجال البوليس معرفتها، فلا يحاولون إيقافها وهي تنطلق — بسرعتها المجنونة — في طريق الكورنيش.

تبقى ملاحظة يهمُّني أن أُشير إليها: أني أحبُّ التعرف إلى حياة الشعوب من خلال ما أقرؤه من قصص وروايات، أو أشاهده من أعمال درامية، فإن أُتيح لي زيارة بلد ما، استدعيتُ

إلى الذهن ما كنت قرأتُه أو شاهدته. هوايتي تغيب — بالطبع — في بحري، الحي الذي نشأتُ فيه، وأستلهم منه معظم كتاباتي، وإن كنت أشاهد الأفلام التي تعرض — أحيانًا — للحياة في الأنفوشي، وتطرح المقارنة نفسها، بين الواقع الذي أحياه ومشاهد أفلام السينما: لا يخلو أيُّ فيلم عن بحري من بار وراقصة. فتشتُ الحيَّ بحثًا عن أيِّ بار، فلم أجد، وأرجعتُ ذلك إلى حرص السينما على اجتذاب المشاهد بالإكثار من التوابل المستوردة! …

أيووووه، ونحبووووه، ونضربووووه، وغيرها من الكلمات التي تحاول محاكاةَ لهجة أبناء بحري، تبدو غريبةً لأبناء بحري أنفسهم؛ فهم لا يتحدثون بهذه اللهجة على الإطلاق، وإن كانوا يُدخلون «النون» في لهجتهم، بحيث يُنسب الفعل إلى الجماعة. عبَّرت الأعمال الفنية والأدبية عن الواقع الأوروبي والأمريكي: دي سيكا وإيطاليا، فوكنر والجنوب الأمريكي، ديستويفسكي والحياة الروسية، لوركا وإسبانيا ما قبل فرانكو، كازان وشتاينبك والطبقات الأدنى في المجتمع الأمريكي … إلخ. لكن ذلك ما نفتقده في أفلامنا العربية — المثل أوضحته — لحرص غريب على إضافة تلك التوابل التي لا تستهدف الواقع بقدر ما يهمُّها تملُّق مشاعر المتلقِّي!

وإذا كانت مقولةُ الفن تؤكد أن العمل الفني لا يحتمل الواقع في إطلاقه، فإن مقولة المعايشة تؤكد أن العمل الفني قد يُسيء إلى الواقع، بهدف ينأَى عن الواقع والعمل الفني معًا.

العلاقات بين أبناء البيت الواحد، والشارع الواحد، والحي الواحد، تختلف — في مطالع الأربعينيات — عن الصورة القائمة الآن. المثل الذي كان يلجأ إليه آباؤنا في لحظات خصامهم مع الجيران والأقربين: صباح الخير يا جاري … إنت ف حالك وانا ف حالي … هذا المثل الذي لم يكن — في أغلب الأحوال — سوى أمنية، يفرضها خصامٌ طارئ، أصبح الصورةَ المألوفة في حياتنا المصرية، وفي المدن الكبيرة على وجه التحديد.

وعندما أتذكر كيف كان يحيا بيتُنا وشارعنا — المنزل رقم ٥٤، والشارع إسماعيل صبري — في مطالع الأربعينيات، فإن الصلة تكاد تَسِم الجميع — سكان البيت والحي، موظفيه وتجَّاره وحرفيِّيه وباعته الجائلين — بما يُشبه رباط العائلة الواحدة، أو الأصدقاء الحميمين في أقل تقدير.

كان أبي ذو المكانة الاجتماعية المتفوقة، والثقافة التي ترتفع — بالطبع — عن ثقافة عم محمد الفكهاني؛ صديقًا حميمًا للرجل، يقضي غالبيةَ فراغ وقته في الجلوس إليه، وتبادُل

الأحاديث التي تتناول أمورًا شتى. وكنت وشقيقي نتشارك مع فتحي، ابن عم محمد، فيما كنَّا نُسمِّيه «الغدِّيوة»: نُحضر طعامًا من بيتنا، ويفعل فتحي الشيء نفسه، ونفرش «المائدة» تحت مقدمة عربة عم محمد. وعلى الرغم من الاحترام الذي كان يحظَى به أبي بين جيرانه — لاعتبارات الوظيفة، وأنه كان الوحيد الذي يحمل في يده صحفًا أجنبية — فإن شعور العائلة الواحدة كان يلفُّ الجميع. حتى الشجار — ولم تكن الحياة في شارعنا تخلو منه — كان أشبهَ بسُحُب طارئة، تُبدِّدها دعابة، أو نكتة، أو تدخُّلٌ من الأصدقاء. وفي المرة التي تصور فيها جار الطابق الثاني، أن لبعض سكان الشارع من الحرفيِّين صلةً بمداعبات الأطفال الثقيلة لنجله الغالي — وكان يعاني البله — فاجأهم بسيل من الشتائم المنتقاة. وبعكس المتوقع، قابل أصحاب الدكاكين شتائم الرجل بابتسامات وقهقهات، وتجمَّعوا أمام دكان الرويعي الترزي، يُردِّدون على إيقاع التصفيق: العوض على الله ... الراجل اتجن! ... الراجل اتجن! ... وواجه الرجلُ الأمرَ بغضب في البداية، ثم شاركهم — بتأثير ابتساماتهم المحرِّضة — التصفيق والترديد: العوض على الله ... الراجل اتجن!

أذكر من بين المعالم الإنسانية لبيتنا وشارعنا، وهؤلاء الذين كانوا يَفِدون من الحي، فيتركون تأثيراتٍ دائمةً أو طارئة: رشاد الحلاق، دكانه أسفل بيتنا، وشقته أعلى سطح البيت المقابل. كان هادئًا وطيبًا بلا حدود، شاغله الأول أن يكون له ولد، وأسلمت الزوجةُ نفسَها لعلاج الأطباء والوصفات الشعبية، حتى علا — في النهاية — صراخُ المولود المرتقب. لكن الطفل رحل قبل أن يبلغ العام. بدا لي الموتُ مأساةً قاسية، وأنا أشاهد الرجل من نافذة بيتنا، يجهش بالبكاء، ويلطم وجهه، ويعض أصبعه، ويرفض — في إصرار — محاولات الرجال بأن ينهض من الأرض التي افترشها، فلا يغادر مكانه. أما محمود أفندي الموظف بوزارة الداخلية، والذي كان يسكن الشقة الموازية لشقتنا في البيت المقابل — جسد ضئيل، وياقة منشاة، ومذبَّة، وطربوش معتدل الزر، وخطوات ثابتة — فقد تركَت وفاتُه في نفسي تأثيرًا صاخبًا، لم أُفلح — أعترف — في تجاوزه حتى الآن. حان موعد بدء الجنازة، فأدرك الحانوتي صعوبةَ الهبوط بالنعش — لضيق السلَّم — من الطابق الثالث. وحمل الجثةَ رجلان، هبطَا بها إلى الطابق الأرضي، فأوسداها النعش، ومضَت الجنازة. كانت تلك أول مرة أشاهد فيها ميتًا التفَّ بكفنه. بدا لي ما رأيت — داخل خيمة البكاء والصراخ والصوات — حزينًا ومقبضًا. صارحت شقيقي الأكبر بمشاعري، فتعمَّد — من يومها — أن يُخيفَني بالجار الراحل، فهو يهتف أثناء جلستي الهادئة مع لعبي: محمود أفندي! ... وأترك ما بيدي، وأجري نحو أمي حيث تكون، فألوذ بحضنها.

وإلى الآن، فإن مشهد الموت مما لا أقوى على الوقوف أمامه. أكتفي بتشييع جنازة الميت — أيًّا كانت صلتي به — إلى المسجد، فأقدِّم العزاء، أو أتقبَّل العزاء. أما السعي إلى المقابر، ومتابعة خطوات الدفن، فذلك ما لا تقوى نفسي الضعيفة عليه.

حاولت — يومًا — أن أُعالجَ الداء — كما دعا أبو نواس — فلم أُفارق جنازة الشاعر الكبير الراحل عبد الرحمن شكري، حتى غيبوا الجثمان داخل القبر. عدتُ إلى البيت، فلم أَنَم ثلاثة أيام، وظل الخوف يطاردني لأيام طويلة تالية. كنت أرى الجثمان المكفَّن ممدَّدًا في السرير جواري، فأهبُّ فزعًا، وألمحه في حنية السلَّم أثناء عودتي إلى البيت، وأتخيله مقبلًا ناحيتي أثناء جلوسي — بمفردي — في الشقة. ثم بهتت التأثيرات، وإن ظلت في داخلي كالعقدة التي يصعب حلُّها.

أما الدكتور مردروس، فهو طبيب من أرمينيا (جاء الأرمن إلى مصر في أعقاب الغزو العثماني. وبديهيٌّ أن الدكتور مردروس كان حفيدًا لواحد من هؤلاء الذين أتَوا في مراحل شتى من الوجود العثماني في مصر). عيادته في الطابق الأول من بيتنا. كان سيد — تومرجي العيادة — يدعو أطفال البيت للعب معه، وتتواصل ألعابنا في غرف العيادة، نمثِّل غارة جوية — وكانت الحرب العالمية الثانية تدنو من نهاياتها — ونلعب الاستغماية وصلح وأولها اسكندراني. وينقضي الوقت، فنُفيق على صوت جرس الباب. كنَّا نخاف الطبيب في البداية. فلما اقتصر ردُّ الفعل على وقوفه بالباب، يراقب انصرافنا الهادئ المتخاذل، تجدَّدت ألعابنا في العيادة …

مرة وحيدة، واجهنا — شقيقي وأنا — عقابَ الدكتور مردروس. أغلقنا عليه باب الشقة من الخارج — شقاوة عيال! — فلما أفلح في فك الحصار، جرى خلفنا بما أوسعَته شيخوخته، وكنَّا نسبقه بخطوات فزعة، إلى حيث كانت أمي جالسةً في صالة الشقة، فارتمينا في حضنها، وبللُ الخوف يغطِّي ثيابنا.

أُصارحك بأنَّ فهمي لمعنى الأمومة يعود إلى تلك اللحظة القاسية الباهرة في آنٍ. تحوَّلت أمي إلى قطة تدافع عن صغارها، تلاحقَت من فمها — دون أن تُدرك ما حدث — عباراتٌ قاسية، تلوم الجار الذي لم يرعَ حقوق الجيرة. وعاد الرجل إلى عيادته دون أن تكتمل على شفتيه كلمةٌ واحدة توضح ما فعلناه. ثم غاب الدكتور مردروس — فيما بعد — عن بيتنا. سافر في إجازة صيف، فلم يَعُد.

الصورة التي أتخيَّلُها الآن، أن شقتنا كانت تتوسط، من أعلى وأسفل، خمسَ شقق، تسكن إحداها أسرةُ عبده فرج الصبروتي، مهنته الأساسية بناء العمارات وبيعها. وكنت وعادل الصبروتي من مواليد عام واحد، فهو إذن سببٌ كافٍ لصداقة الطفولة، فضلًا عن أنه كان — من يومه — ذا شخصية متميزة، فهو — بلغة المذاكرة — «موس» لا ينادي على اللعب قبل أن يُتمَّ واجباته، ويميل في ألعابه إلى الهدوء، وربما إلى الجديَّة، ويهبك إحساسًا دافقًا بالأخوة، وما تزال صداقتي لعادل الصبروتي، حتى بعد أن انتقلت أسرتُه إلى بيت آخر، وبعد أن كبرنا، والتحق بعمل وتزوج وأنجب أبناء. لا أكتمك أن عادل الصبروتي هو صورة طفولتي. أتذكَّره إذا تذكَّرت الأيام اللاهية: اللعب تحت الأسرَّة، أو في السطح، وعلى السلالم، مباريات كرة الشراب في الشارع الخلفي، مشاهدة السفن الضخمة في الميناء الغربية، المذاكرة داخل صحن جامع أبي العباس، متابعة صيَّادي السنارة والطراحة والجرافة في الميناء الشرقية، التسلِّي بالبلي والنحل وطائرات الورق في الساحات الخالية والأزقة، التهام أطباق المكرونة أم تعريفة من عربة عم مصطفى أول شارع المسافرخانة، النظر — من بعد — إلى الحياة المتفردة لطلاب المعهد الديني، التعليقات المعجبة بأفلام زورو وطرزان في سينما رأس التين، ملاحظة فتح وإغلاق محطة البنزين الصغيرة المقابلة لبيتنا، إذا بدا عم أحمد الخردواتي — كان يجمع بين التجارتين — على باب الدكان، عرفنا من تعليقات آبائنا، بوفرة الأفيون، وإذا ظل المكان مغلقًا، فلا بد أن الرجل يعاني مرض الحاجة إلى المخدِّر.

وأما رائف — وأستأذنك في أن أكتفيَ باسمه الأول — فقد كان يُقيم في شقة بالطابق الأول — الطابق شقتان — وكان ذا شخصية باهتة. لا أذكر أنه شاركنا لعبًا ولا جدًّا. وكان يختفي من حياتنا، ويظهر، فيشكو أمَّه التي تخشى عليه النسمة — فهو وحيدها — وأباه الذي لا يملُّ التردُّدَ على المدرسة، ليوصيَ به، فيُعايره التلاميذ بالكوسة التي لن تنفع خائبًا. ذكرى رائف ترتبط بمراهقتي. بالتحديد: تلك الأيام التي يتعرف فيها الصبي إلى جواب السؤال: كيف يمارس قِطَّا البيت علاقتَهما الجنسية، دون أن يُتاحَ لهما معرفةُ طبيعة العلاقة أصلًا؟ … فهو يتنبَّه — بوسيلةٍ ما — إلى بلوغه، وإلى الهاجس الغريب في داخله، يطلب اللذة والسكينة. وتتحرك أصابعه — غريزيًّا — بالعادة السرية، فتبدو عالمًا بهيجًا، يعاود الدخولَ إليه مرات ومرات. وصارحت الولد باكتشافي، فأبدى فضولًا للمعرفة — لم يكن قد أدرك البلوغ بعد — فرفضت، وإن توقَّدت سعادتي لأني أمارس ما يعجز عنه آخرون. ثم اختفى رائف من حياتي، فلا أراه إلَّا مصادفة. خوف الأم على الصبي من فساد

البنات، أو السير في طريق خاطئة — تناثرت همسات بجنوح نوازعه الجنسية — دفعها إلى تحديد خطواته بين البيت والمدرسة، وذوَت صداقتنا الطارئة — بالإهمال، وبالبعد عن العين — وشغلَتني عنه، فيما بعد، صداقاتٌ جديدة، وثابتة.

كان البحر يُطلُّ على بيتنا من ثلاث جهات. ثمة — على اليسار — الميناء الشرقية، التي تبدأ بالسلسلة، وتنتهي بقلعة قايتباي، وفي مدى الأفق، من نوافذه الخلفية، شاطئ الأنفوشي الذي يتجه إلى سراي رأس التين. أما الجانب الأيمن، فيُطل على الميناء الغربية، بدءًا بباب نمرة واحد — وكم تسللنا إليه: عادل الصبروتي وأنا، نتطلع للبواخر الضخمة الراسية فيه — إلى حيث لا أدري من الأرقام.

أستطيع القول إني أفدتُ من هذه البيئة السخية، ليس على المستوى العاطفي أو الوجداني فحسب، وإنما على مستوى الحياة اليومية، والتعامل في واقع، والإفادة من خبرات. حرصت على أن يكون البحر، والأنفوشي، في أغلب الأحيان، ولعل الحرص كان من جانبهما أيضًا! مرادفًا لغالبية ما كتبت.

بيئة الأنفوشي، أو رأس التين، أو السيالة، أو بحري — رغم اختلاف التسميات — تعني شبهَ جزيرة من شبه جزيرة الإسكندرية، بيئة لها خصوصيتها المتميزة، واختلافها لا عن بقية أحياء الإسكندرية الأخرى فحسب، وإنما عن البيئات المصرية جميعًا. الموظفين العاملين في الميناء، وضباط البحرية في المناطق التي تلي ميدان أبي العباس في الطريق إلى المنشية، وعساكر السواحل والحرفيِّين والصيادين وغازلي الشباك وصناع السفن في السيالة وما حولها، إلى سراي رأس التين.

ومع أن الوصول إلى شاطئ الأنفوشي، وشوارع السيالة وحواريها وأزقَّتها إلى رأس التين، كان يستلزم مشوارًا — في الأقل بالنسبة لمن لم يجاوزوا مرحلة الصبا آنذاك مثلي — فإني كنت أجد متعةً حقيقية في الوقوف على شاطئ الأنفوشي، ومتابعة عمليات الصيد، وصناعة البلانسات والمراكب الصغيرة، والتعرف إلى العلاقات السوية والبسيطة والمشبوهة، والصلة بين دنيانا التي نحياها، وتلك التي تشغي بالأولياء والجان والأرواح وتوقعات الغيب. وإذا كان تعرُّفي إلى الحياة المتميزة قد انعكس في العديد من أعمالي: الأسوار، وإمام آخر الزمان، والصهبة، وقاضي البهار ينزل البحر، وعشرات القصص القصيرة، فإن صور الحياة في بحري — ماضيه القريب تحديدًا — تلح في أن تكون نبض أعمال أخرى تالية.

أتاحَت لي الظروف أن أسافر خارج مصر، أتعرَّف إلى نماذج تتباين إلى حدِّ التضاد، وأفدتُ من ذلك كلِّه بصورة وبأخرى، لكن «بحري» يظل هو السيد في كلِّ ما أطمح إلى

كتابته، وفيما انتهيتُ من كتابته فعلًا، وكما قلت لك، فإن خصوصية الحياة في المنطقة التي تبدأ بانحناءة الطريق من نقطة الأنفوشي إلى انحناءة الطريق في سراي رأس التين، وهبَتني تجاربَ ورؤًى وخبرات، لم ألتقِ بها في مكان آخر.

روى لي صديقي نجيب بن عياد في جلسة سمر بمدينة المينستير التونسية، عن نماذجَ أتاحَت له أيام الدراسة في باريس أن يتعرف إليها — أفدت منها في روايتي «إمام آخر الزمان» — لكنَّ الشخصيات التي قضيتُ معها سِنِي الطفولة والصِّبا في الأنفوشي — وبحري عامة — جزءٌ من حياة بانورامية، كانت أشدَّ ثراءً وتباينًا في التعبير عن الطبيعة البشرية، الغريبة والمحيرة. وأذكر هنا شخصيَّتَي «أنسية» و«حمادة بك» في «رباعية بحري» التي استغرقَت مني كتابتُها أعوامًا. فبالإضافة إلى دلالتهما الاجتماعية والنفسية، فإنهما تعبيرٌ فعليٌّ عن نماذج التقيت بها في أيام الأنفوشي، وتعرَّفت إليها بصورة مباشرة.

صارحني صديق: يبدو أنك أشفقت من أن يغيب الأنفوشي عن أحد أعمالك، فأدخلته — قسرًا — في «إمام آخر الزمان»؟.

مع أن الإسكندرية — وبحري خاصة — عشقي الدائم، وطرف خيط الزمان والمكان فيما أحاول من إبداعات، فإن غياب علي عبد الحسين ورفاقه في الفصل قبل الأخير في «إمام آخر الزمان»، هؤلاء الذين لا يَعْنينا أسماؤهم بقدر ما يعنينا تواصل حلقات القهر والديكتاتورية. غياب علي عبد الحسين ورفاقه، أتاح السبيل لظهور فكر آخر جديد، يناقش الأمور من زواياها المناقضة. الإمام — في نظر أصحاب ذلك الفكر — لا يرمز إليه بعلامة «×» لكنه بداية وتطبيق ونهاية. أن يكون له اسمه، ومكانه، وزمانه أيضًا. كان الاسم ضرورة. لم يَعُد الإمام فحسب. وكان ذكر المكان والزمان ضرورة. ومثلما فرض اسمُ حسن الحفناوي نفسه، فقد فرض حي بحري نفسه كذلك مكانًا وزمانًا لأحداث الفصل الأخير في «إمام آخر الزمان». بحري هو الاختيار الطبيعي. أعرف ناسه ومساجده وبيوته وميادينه وشوارعه وأزقَّته. أستدعي الذاكرة، فترتسم بانوراما المكان بكل أبعادها ...

في إحدى قصصه القصيرة، اعتذر بلزاك لقارئه أنه أسرف في وصف الشارع الذي جرَت فيه أحداث القصة، لسبب بسيط: أن ذلك الشارع هو الذي وُلد فيه بلزاك ونشأ ... وأعتقد أن هذا هو الشعور نفسه الذي أكتب من خلاله الكثير من أعمالي.

أنا لا أستطيع أن أتصور شخصياتي إلَّا — نادرًا — في غير تلك المنطقة التي تبدأ بسراي رأس التين، وتنتهي بنهاية شارع الميدان. عالم يفرض نفسه في كل ما أكتب. وكما

قلت لك، فقد فوجئت في آخر رواية «إمام ...» بأن الإمام له اسمه، وللأماكن أسماؤها. جرَت أحداث الفصل في السيالة، بعكس بقية فصول الرواية التي جرت أحداثها في أماكن أخرى، فغاب اسم الإمام، وغابت أسماء الأماكن. والمكان الوحيد الذي أسهب القلم في وصفه في «الأسوار» هو شاطئ الأنفوشي. وأحيانًا، فإني بعد أن أضع نقطة النهاية لقصة قصيرة، أكتشف أن أحداثها تدور في ذلك البيت الذي يُطل على شارعَي إسماعيل صبري ورأس التين، ويُطل — من الخلف — على جامع سيدي علي تمراز. إنه البيت الذي قضيتُ فيه طفولتي وصباي. ولعل ابتعادي عن الإسكندرية، وإقامتي في القاهرة حيث أعمل، ثم سفري إلى منطقة الخليج في رحلة عمل استغرقَت تسع سنوات ... لعل ذلك الابتعاد كان محرِّكًا لمشاعر الحنين التي أصبحت نافذة، تُطل منها غالبية أعمالي.

أحيا خارج مصر، أو في القاهرة، فتحيا في مخيلتي شوارعُ وحوارٍ ومساجدُ وبنايات الإسكندرية. أشعر بالحنين — والحب أيضًا — لمجرد أني أكتب اسم شارع ما، أو أجلس بالخيال على قهوة، أو أتعرف إلى أيِّ شيء ينتسب للإسكندرية، وحيٍّ بحري على وجه التحديد. أضيف: إني كنت — وما زلت — أُشفق على أبناء الأنفوشي والسيالة ورأس التين، وبالذات تلك البيوت المتساندة التي إذا تهدَّم أحدها، فإنه ما يلبث أن يجرَّ وراءه بيوتًا ملاصقة. مع ذلك، فإن الشعور بالأسى يغمرني كلما تبدَّلت صورة المكان، وتأكدت سطوة المعاول والبلدوزروات والعمارات العالية والطابع الأوروبي. وحين أخطو في شوارعَ وحوارٍ وأزقَّة دنياي القديمة — ما أُفلح في النجاة من معاول المدنية! — فإني أخطو في الأماكن نفسها التي سار فيها من قبل آبائي وأساتذتي: عبد الله النديم، وسيد درويش، وسلامة حجازي، وكامل الحريري، وأحمد الليثي، ومحمود عيسى، وزكي مراد، ومحمود سعيد، وبيرم التونسي، وبيكار، وعشرات غيرهم، جلسوا في شاطئ الأنفوشي، وعلى قهاوي السيالة ورأس التين، صلوا في أبي العباس والبوصيري وياقوت العرش ونصر الدين والبوصيري وعلي تمراز، شاهدوا الجلوات والموالد، وشاركوا الأذكار، تحسَّبوا للنوات، اشترَوا «الشروات» من حلقة السمك، تطلَّعوا إلى قلعة قايتباي ومباني السلسلة والبواخر الضخمة في الميناء الغربية.

أنا لا أطمح أن يصبح «بحري» في أعمالي، مثلما أصبحَت قرية «ماكوندو» في روايات جابرييل جارثيا ماركيث. موهبتي لا تُقارَن بموهبة ماركيث، لكن بحري يتميز عن ماكوندو أنه واقع وليس خيالًا، وإن تدخَّل الخيال أحيانًا كثيرة — وهذا بدهي! — فأعاد تقديم

الواقع في إطار الفن. وأذكر أني كنت أُقبِل على كتابة رواياتي: أبو العباس، ياقوت العرش، البوصيري، علي تمراز، لا باعتبارها قصصًا لها مقومات القصة القصيرة، بل ولا حتى باعتبارها فصولًا في رواية، وإنما باعتبارها «تقارير» عن الحياة في بحري، في الفترة من نهايات الحرب العالمية الثانية إلى قيام ثورة يوليو. كان شاغلي — أحيانًا — تسجيل القيم والعادات والتقاليد، من خلال الشخصيات التي عرفتها — أو أخرى شبيهة لها — عن قرب، أعوام طفولتي وصباي. مع ذلك، فإن دافع كتابة «التقارير» لم يكن إجراءَ مسح اجتماعي، بقدر ما عنيتُ بتضفير الحقائق الموضوعية بالقيمة الجمالية. ولم يكن ذلك أمرًا يسيرًا. حرصت على تقديم صورة الحياة في بحري، عندما كان للحياة تميُّزها الذي تختلف به عن بيئات أخرى في الإسكندرية، ومدن مصر، لكني حرصت — في الوقت نفسه — على «الفن في القصة» باعتبارها كذلك، وإلَّا لكتبت دراسة سوسيولوجية!

ولعله يجدر بي أن أردَّ الفضل لذويه، فأعترف أني أفدت — بغير حدٍّ — من الخطط المصغرة — هل هذا هو التعبير الأدق؟ — التي أَلِفها الراحل خليل السيد سليمان، الموظف السابق بالسكة الحديد. أنهاها في ١٩٦٩م، ومات في العام التالي. بالتحديد في ٣ أبريل ١٩٧٠م. لم أرَ الرجل ولا التقيتُ به حتى مات. عندما بدأت في كتابة الروايات الأربع. أهداني صديقي الشاعر الراحل عبد الله أبو رواش خططَ خليل سليمان. كان الرجل قد أودعها لديه، ومات. وتصوَّر أبو رواش أني ربما أفدت منها في الرباعية، وهو ما تحقق بالفعل. تعرَّفت — في الخطط — إلى بانورامية الميادين والشوارع والحواري والأزقة في بحري. لا أدري بواعث كتابة خليل سليمان لخططه، وهل كان يُزجي فراغ الوقت، أو أنه عُنيَ بجغرافية المنطقة لدراسات كان يُعدُّها؟

أفدت من جهد الرجل، وإن لم أتعرَّف إليه شخصيًّا.

يشغلني السؤال: لماذا بحري — دائمًا — هو صورة الإسكندرية؟ … بنات بحري واحدة من أجمل لوحات فناننا العظيم محمود سعيد، المطربة هدى سلطان تغنِّي: من بحري وبنحبوه. وإذا كان الفيلم عن البيئة الشعبية السكندرية، فإن أحداثه لا بد أن تدور في السيالة ورأس التين، وربما انتقلت إلى الميناء الغربية (ميناء الإسكندرية) ومحطة الركاب. حتى الأفلام التي تحاول إقناعك بأنها في الإسكندرية، تكتفي بتصوير المراكب الصغيرة المتناثرة في يسار الميناء الشرقية، بالقرب من نقطة الأنفوشي. المكس والورديان والقباري وغربال وكرموز والباب الجديد وغيرها من أحياء الإسكندرية الوطنية، غائبة — أو تكاد —

في صورة المدينة. قد يأتي ميدان محطة الرمل في لفتة عابرة، وربما مست الكاميرا شاطئ الكورنيش، لكن بحري — في الأعم — هو الصورة الوحيدة للإسكندرية، الإسكندرية الحقيقية، إسكندرية ناسها الذين وُلدوا وعاشوا حياتَهم فيها. ربما يمرُّ عام أو اثنان، فلا يفكر أيٌّ من أبناء الحي في مجاوزة المدينة إلى شواطئ التصييف، بدءًا بالشاطبي إلى المعمورة. إنها إسكندرية الأولياء والصيد والتصدير والاستيراد والشحن والتفريغ والتجارة والتصنيع. تقاليد البحر هي التي تحكم العلاقات، وتُسيطر عليها.

بحري يتسم بشخصية خاصة، مذاق مختلف، بيئة مغايرة، فيبدو ملمحًا متميزًا، وإن كان أكثر تعبيرًا عن البيئة الساحلية في عمومها. ثمة الصيادون الذين يمثِّلون قطاعًا رئيسًا بين أبناء الحي (تأمل هذه الشياخات: السيالة، رأس التين، الصيادين، سوق السمك). حتى الزي التقليدي: اللاسة والصديري والسروال الفضفاض الطويل، تلتقي به في بحري، وربما في أبي قير — بيئة صيادين كذلك — وثمة عساكر السواحل والعاملون في الميناء الغربية، والذين يُعَد «البحر» محورَ حياتهم وهمومهم اليومية. وهناك شاطئ الأنفوشي الذي يتَّسم بشعبية خالصة، تختلف — بصورة مؤكدة — عمَّا نراه في شواطئ الإسكندرية الأخرى. وإذا كان بوسع الرجال أن ينزلوا البحر بالمايوهات العادية، فإن الفتيات والنساء يصعب إلَّا أن يستحمِمْنَ بثيابهن المنزلية. ومن المستحب أن يكون ذلك في الصباح الباكر، حتى لا تقع عليهن عين (أصارحك بأن هذه الثياب — عندما تبتلُّ بالمياه — تبدو في التصاقها بالجسد أشدَّ إثارة من المايوه!)

أما المرسي أبو العباس، سلطان الإسكندرية وحاميها، فإنه الرمز للإسكندرية كلها: إقروا الفاتحة لابو العباس ... ياسكندرية يا أجدع ناس ... الزفاف يظلُّ ناقصًا ما لم تسبقه جولةٌ للعروسين وأصدقائهما حول الميدان المواجه للجامع سبع مرات، وكرامات السلطان في حوائج الغلابة والمنكسرين من أبناء الإسكندرية والمدن المجاورة، لا تقلُّ عمَّا يعتقده أبناء القاهرة — والمترددون عليها — في أم العواجز وزين شباب أهل الجنة والشافعي والرفاعي وأولياء الله الصالحين. وأما ياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين والعدوي والمغاوري وغيرهم من الأولياء، فإنهم — فيما يبدو — اختاروا جيرةَ أبي العباس، تحوَّل بحري به وبهم إلى منطقة جذب ديني، يَفِد إليها الناسُ من أنحاء الإسكندرية، ومن المدن والقرى المحيطة، وتتعدَّد فيه الموالد وحلقات الذكر ومواكب الصوفية.

بحري — حيُّ الجمرك كما تقول الأوراق الرسمية — يمثِّل أكبر نسبة كثافة سكانية بين أحياء المدينة. غالبيَّتهم من أصل سكندري، بعكس أبناء بعض الأحياء الأخرى كالقباري ومينا البصل وغيط العنب وباب شرقي.

بحري أصل الإسكندرية.
بحري صورة الإسكندرية، أصالتها وتفرُّدها وسماتها المميزة.
بحري: الميلاد والطفولة والنشأة، وبداية التعرف إلى كلمة: وطن.

أيام في المعهد الديني

لعل الأعمال الروائية كانت أصدقَ تعبيرًا — ربما عن كتابات المؤرخين — في تصوير فترة التناحر الحزبي، في مجتمع ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢م. حيرة الشباب، وتوزُّعه، بين مختلف التنظيمات والأحزاب، السرية والمعلنة، هي نبضُ العديد من الأعمال الروائية لنجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وعبد الحميد السحار ويوسف إدريس وثروت أباظة وغيرهم. وكم كان مؤثرًا — في ختام «السكرية» — أن يستقبل السجن عبد المنعم شوكت الإخواني، وشقيقه أحمد شوكت الشيوعي، بينما ابن عمهما رضوان ياسين، الذي آثر استغلال مواهبه الجسدية في تحقيق طموحاته، يجني الثمار في سهولة ويسر.

بالطبع، فإن حداثةَ سنِّي لم تهبني الفرصةَ لتبيُّن مبادئِ كلِّ حزب واتجاهاته بصورة متكاملة، إنما هي ملامح مشوَّهة وغائبة التفاصيل، لكنها — مع ذلك — تُوضِّح، بدرجة وبأخرى، طبيعةَ الحياة السياسية المصرية، في واحدة من أخصب فتراتها.

أول حادثة سياسية أذكرها، عندما عاد أبي من عمله ظهر الأحد ٢٥ فبراير ١٩٤٥م (كنت في السابعة من عمري) في يده صحف اليوم، يتصدرها نبأٌ مصرع الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء آنذاك. تقدَّم منه الشاب محمود العيسوي عضو الحزب الوطني، في البهو الفرعوني — بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ — تظاهر بالرغبة في مصافحته، ثم أفرغ رصاصات مسدسه في صدر رئيس الوزراء. كان الشاب قد أصدر حكمه، ونفَّذه، عقابًا لأحمد ماهر على اقتراحه بأن تُعلن مصر الحرب على ألمانيا الهتلرية.

لم أكن أفهم الموت تمامًا، فأثار ملاحظتي فحسب، أن كلَّ الصور المنشورة بالصحف كانت للرجل — أحمد ماهر — وهو يبتسم! ... الموت — كما أفهمه — كريهٌ، فلماذا لا يحزن الرجل بعد أن مات؟ ...

أعلنتُ ملاحظتي، فضحكت أمي، وقال أبي: كانت هذه الصور للرجل قبل أن يموت. مَن يموت لا يبتسم ولا يحزن ولا يشعر بما حوله! …

هززت رأسي كأني عرفت، وإن أخليت ذهني — فيما بعد — لتساؤلات لا نهاية لها.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أتعرَّف فيها إلى أسماء: أحمد ماهر، محمود العيسوي، البرلمان، المحور، الحلفاء. ثم فرضَت الأوضاع التي أفرزَتها الحرب العالمية الثانية أن أنشغل — بقدر وَعْيِي المحدود — بالأحداث السياسية المهمة. شاركت بالقراءة والمتابعة، والمناقشة أحيانًا. وأعتقد أن وَعْيِي السياسي قد نضج في وقت مبكر؛ ذلك لأني حاولت أن أُدليَ برأيٍ في القضية الفلسطينية، قبل أن يُقرَّ مجلس الأمن مبدأ التقسيم، فرمقني «أحدهم» بنظرة استنكار واضحة، وقال: مش تشوف مذاكرتك الأول؟! … وتطوَّع جارٌ لنا، أتاح لي — قبلًا — فرصةَ النقاش في موضوعات شتى، بأن يمسح قطرات العرق التي تفجَّرت في صمت، وقال: بالعكس، إن وعيَه السياسي ممتاز! … وعرفتُ — يومها — أن آرائي السياسية — وقد استهوَت جارنا العزيز — ليست ساذجةً ولا نكرًا.

كان عام ١٩٤٨م بدايةَ اهتمامي الفعلي بالقضية الفلسطينية. كنت في العاشرة من عمري. أعرف في السياسة بالقدر الذي يُتيحه لي ما يأتي به أبي من صحف، فضلًا عمَّا تضمُّه مكتبته من كتب سياسية. وتناول الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع سيدي علي تمراز، في خطب الجمعة، معارك الشعب الفلسطيني ضد عصابتَي شتيرن والهاجاناة وغيرهما، وأمَّ المصلين في صلاة الغائب على روح عبد القادر الحسيني، وطالعت نداءات الدعوة للجهاد التي ألصقها الإخوان المسلمون والجماعات والأحزاب السياسية على جدران المباني، وفي الميادين، وتطوع للقتال الشقيق الأكبر لصديقي حسن السويفي، وقال حسن إن والدَيه حزنَا بشدة لتصرُّف شقيقه، وامتدَّت أحاديثُ أبي وأصدقائه، تتناول القضية منذ بداياتها، وأكَّد زوج عمتي جعفر بدر إبراهيم — وكان مأمورًا لمرصد كوم الناضورة — أن دخول القوات المصرية فلسطين، فرصة للتدرب الفعلي على فنون القتال، بعد أن شاركت — بالفرجة تقريبًا — في أحداث الحرب العالمية الثانية. وزادت متابعتي لتطورات الأحداث منذ الخامس عشر من مايو ١٩٤٨م. أحاول النطق السليم لاسم القدس — وكنت أنطقه بالفتحة جميعًا — والتعرف إلى الفرق بين سوريا وروسيا، وإن كانت أبعاد القضية قد توضحت أمامي تمامًا، ساعد على ذلك — كما قلت — أنباء الصحف ومعلومات الكتب ومناقشات أبي وأصدقائه. وكنت أشارك في تلك المناقشات — أحيانًا — بما لا يرى فيه أبي وأصدقاؤه سذاجةً ولا نكرًا!

وأثناء انتخابات ١٩٤٩م، كنت في طريقي إلى الطنطاوي بائع الفول بشارع التتويج. وتسللتُ وسط حلقة من الناخبين كانوا يناقشون مرشحًا سعديًّا — لا أذكر سوى أنه كان ممتلئ القامة! — وكانوا يُنصتون — في تأثُّر واضح — إلى كلماته التي تركزت حول حادثة ٤ فبراير، وعلاقة مصطفى النحاس — وقرينته — باللورد كيلرن. وكان من خلفنا صورةٌ للنحاس وزينب الوكيل واللورد، تحتها كلمات تنعَى خيانة الزعامة الوفدية. وكضيف غير مدعو، قلت للمرشح السعدي: إذا كان النحاس قد أخطأ بقبول الأمر الواقع في ٤ فبراير، فإن النقراشي قد ارتكب جريمةً بحادثة كوبري عباس. لم يغضب الرجل لاقتحامي المتحمس. لقَّبني بالقاضي الصغير، وناقشني في خروج الزعامة الوفدية عن المسار الصحيح لحركة الوفد المصري، وأن السعديِّين هم التواصل الحقيقي لمبادئ الوفد كما كان يمثِّلها الراحل سعد زغلول، ومن هنا كانت تسمية «السعديِّين». وطال النقاش، والناس من حولنا ينظرون إلى صبي صغير، يرتدي بيجامة وصندلًا وبيده «كسرولة»، ومرشح يحاول أن يصوِّر لناخبيه — بالصبر على تبجُّح صبي — مدى ديمقراطيته.

والحق أن لم أشارك بجهد إيجابي في الحياة السياسية حتى أواخر الخمسينيات، اللهم إلَّا إذا كان ذلك الجهد الإيجابي قد تمثَّل — يومًا — في مظاهرة تدعو لأحد المرشحين.

كان أبي ينتمي — بعقله — إلى الحزب الوطني، وبعاطفته إلى الوفد. أما أنا فلم يكن يشغلني في كل ما أناقشه إلَّا تلمُّس جوانب الصواب والخطأ؛ فالنقراشي يصرخ في مجلس الأمن: أيها القراصنة، اخرجوا من بلادنا! … فهو إذن قد اختار الصواب. والنقراشي يفتح كوبري عباس على الطلاب المتظاهرين، فهو قد ارتكب جنايةً يستحق عليها الإعدام. وجرائم إسماعيل صدقي البشعة لا تلغي إنجازه لكورنيش الإسكندرية. ومواقف النحاس الوطنية لا تضع ستارًا على حادثة ٤ فبراير. لم أكن قد تعلَّمت النظر إلى الأحداث في بانوراميتها التي تتصل فيها النتائج بالأسباب، إنما هي مواقف لهذا الزعيم — أو الحزب — أو ذاك، فأرضى عنها، أو أسخط عليها، دون أن تتشكل خلال توالي الرضا والسخط، وجهة نظر أقتنع بها، وأدافع عنها.

ثم دعَت حكومة الثورة إلى إجراء انتخابات عامة لمجلس الأمة عام ١٩٥٨م، وسعيتُ للمرة الأولى في حياتي إلى شقة متواضعة بالقرب من طريق الكورنيش، حوَّلها أحد المرشحين مقرًّا انتخابيًّا له. وكان الباعث على ذلك التصرف أن المرشح — وأذكر من اسمه جمال الدين — كان أستاذًا بكلية العلوم، لم يسبق له الدخول في المعارك الانتخابية، بينما كان منافساه يُنفقان آلاف الجنيهات في كسب الأصوات، بدءًا بدفع ورقة نصف الجنيه،

والاحتفاظ بالنصف الثاني حتى إعلان النتيجة، وانتهاء بالقسَم على المصحف أن يعد الذي يعطي الخصم صوته خارجًا من دين محمد، ويستحق النار حدفًا.

ولاحظنا — بعد أيام من بدء الحملة الانتخابية — أن عدد المترددين على المقر في تناقص مستمر. وكان السبب واضحًا، فلم يعد ما قدمه المرشح إلى ناخبيه فناجين الشاي أو القهوة. واقترحت — في تأدب — أن نفعل مثل الآخرين، فننظم مظاهرةً تطوف شوارع الدائرة الانتخابية، لعل المتعلمين من أبنائها يتنبهون إلى المرشح الخافت الصوت، فيعطونه تأييدَهم.

وغادرَت المظاهرة — عصر اليوم التالي — «مقرَّنا» الانتخابي. كانت تتألف من حوالي عشرين شخصًا، راحوا يعالجون الحرج في البداية — فلم يكن لأيٍّ منهم سابقُ عهد بالانتخابات، ولا بالمظاهرات الانتخابية — ثم انضم إلى المظاهرة — كالعادة — عددٌ من الذين ينضمون إلى كل مظاهرة، بصرف النظر عن انتماءاتها، ولا إلى ماذا تدعو، وعلَت الأصوات شيئًا فشيئًا، حتى تنبهت إلى نفسي فجأة، وأنا أتوسط المتظاهرين في شارع السيالة، أُردِّد الهتاف الذي لم يتغير: إن جيت للحق ... جمال أحق! ...

لكن الأمل في وعي متعلِّمي دائرة الجمرك شحب وتلاشَى أمام الأموال التي أنفقها المرشحان المنافسان. وكان نصرًا مبشِّرًا عندما استطاع مرشحنا أن ينال من الأصوات ما يستردُّ به تأمينه الانتخابي!

كانت الشيوعية أولى التسميات السياسية التي تعرَّفتُ إليها. كنت أتلقَّى تعليمي الأوَّلي في مدرسة البوصيري بالموازيني، وأحاول الإفادة مما تعلَّمته بقراءة — الأدق: تهجي — ملصقات الأفلام، ولافتات الدكاكين، وكل ما تُصادفه عيناي. هزَّتني — في البداية — تلك الكلمات التي كُتبت بخط كبير على جدران المحكمة الشرعية بشارع فرنسا، ثم تكررت رؤيتي لها في جدران مباني الإسكندرية: «الشيوعية ضد الدين».

ولأن بيتنا كان يُطل على جامع، ولأني كنت أعشق أبا العباس: سيرته وضريحه وصحنه الفسيح وأعمدته الرخامية والميدان الصغير أمامه وناسه واحتفالات مولده، ولأن الترغيب — والترهيب — بالدين والحساب والعقاب والجنة والنار، كان بعض الطعام الذي فطمتُ عليه في طفولتي ... لذلك كله، فقد هزَّتني الكلمات — أول ما استطعت قراءتها وفهمها — هزًّا عنيفًا: ألَا تخشى تلك الشيوعية أن تقف ضد الدين، بكل ما يحمله من قوًى جبارة؟! وتجسَّدَت خطورةُ الكلمات في ذهني إلى حدٍّ رفضتُ معه أن أسأل أبي عن معناها

وبواعثها. دار السؤال في الذهن كثيرًا، وإن لم أَقُلْه. لعلي كنت أتهيَّب التعرُّف إلى مفاجآت لم تخطر لي ببال.

نحن نلحظ أن عمران الإسكندرية كان يتمركز دومًا حول أضرحة أولياء المدينة، مثل القباري وبشر والشاطبي وجابر الأنصاري وأبي الدرداء والطرطوشي وغيرها ... فضلًا عن منطقة بحري التي يعتبر أبناؤها جيرتَهم لأولياء الله شرفًا لا يقلُّ عمَّا يحسُّ به أبناء القاهرة بجيرتهم للحسين والسيدة زينب والشافعي والرفاعي والسيدة نفيسة وزين العابدين، وجيرة أهل طنطا للسيد البدوي، وأهل دسوق لإبراهيم الدسوقي، وأهل قنا لعبد الرحيم القنائي، وأهل دمياط لأبي المعاطي، وأهل الأقصر لأبي الحجاج الأقصري ... إلخ.

بحري هو أشد أحياء الإسكندرية ازدحامًا بالمساجد والزوايا وأضرحة الأولياء. الدين هو الملمح الأهم: المرسي أبو العباس، البوصيري، ياقوت العرش، الطرطوشي، محمد صلاح الدين، ومحمد المنقعي، ومحمد مسعود أبناء الإمام زين العابدين بن الحسين، الشريف المغربي، أبو وردة، محمد الغريب شقيق قطب السويس عبد الله الغريب، أبو نواية، الطرودي، نصر الدين، مكين الدين، علي تمراز، عبد الرحمن، خضر ... العشرات من أولياء الله الصالحين، مساجد وزوايا وأضرحة وأحواش أذكار، وليالي المولد النبوي، وعاشوراء، والإسراء والمعراج، والرؤية، ورمضان، ومواكب الصوفية، وحلقات الذكر، والقادمين من المدن المجاورة، نشدانًا للنصفة والبرء من المرض والستر والمدد.

أذكر — كالأطياف، أو كالحلم — عمليات إعادة إنشاء جامع أبي العباس المرسي في حوالي ١٩٤٣م — كنت أيامها في حوالي الخامسة من العمر — دمَّرَته عاصفة كهربية في ١٩٣٥م (كان الجامع — قبل ذلك — صغيرًا ومتواضعًا، يعاني شيخوخةَ أعوام تبلغ المائتين أو نحوها، منذ أُنشئ في القرن الثامن عشر). أُعيد بناؤه منذ ١٩٣٩م، وكنت أمرُّ بصحبة أبي أمام عمال البناء وهم يحملون قصاع الأسمنت المخلوط بالزلط، يستحثُّهم النغم الأشهر: هيلا ليصة! ... وتم البناء في ١٩٤٣م، وإن افتُتح رسميًّا في ٦ مايو ١٩٤٥م. فلما كبرت، صرت أقضي فترةَ ما بين صلاتَي العصر إلى العشاء كل يوم في أبي العباس، للصلاة والاستذكار ...

كنت أتصور أن الضريحَ المكسوَّ بالقماش الأخضر يضمُّ رفاتِ سلطان الإسكندرية، سيدي المرسي أبي العباس. ثم علمت أن الضريحَ لا يعدو الرمز، المعنى، الدلالة. هنا يقف الناس ويطوفون، يتلون آيات القرآن الكريم، يقرءون الأوراد والأحزاب والأدعية، يبثُّون

السلطان شكاياتهم وما يعانون. أما الضريح الأصلي فهو في غرفة تحت الأرض، وإلى جواره مقبرة أخرى تضم رفات ولدَي المرسي: محمد وأحمد. وللضريح مدخل خاص من خلف الجامع.

تعرفت في أبي العباس إلى ما لم يكن يُتاح لي التعرُّف إليه، لولا تردُّدي على جامع سلطان الإسكندرية. معتقدات وعادات وتقاليد وأنماط حياة. ونشأَت بيني وبين المترددين على الجامع من الشبان للاستذكار وللصلاة مثلي صداقات دائمة، وطارئة، وانغمستُ في أنشطة دينية وصلَت إلى حدِّ «الدروشة». قررت — في فورة من الحماسة الدينية — أن أصوم الدهر فلا أُفطر أبدًا، وأخلصت في تنفيذ قراري فعلًا، فأضفت إلى تأدية الصلاة في أوقاتها صومًا متصلًا. حتى وجبة السحور كنت أُعاني عدم تناولها، لا لإهمال من أبي في إيقاظي، وإنما لتعمُّد، حتى يقرصني الجوع نهار اليوم التالي، فأُنهي الصيام. ولَمَّا توضَّح لأبي إصراري على الصوم، ولأني كنت أعاني هزالًا لا يصح معه الصوم، فقد لجأ أبي إليَّ أمام جامع سيدي علي تمراز القريب من بيتنا، ورجاه أن يُقنعني بصوم يوم واحد في الأسبوع، لخميس أو الإثنين. وقال الرجل — فيما أذكر، ضمن نصائحه — إن الله يعاقب المرء على إيذائه لنفسه. واقتنعت، واكتفيت بالصوم كل خميس. ثم اقتصر صومي على شهر رمضان، وهو ما أحرص عليه منذ صباي إلى الآن.

لما بدأ تعرفي إلى التسميات السياسية من مبادئ وأحزاب وتنظيمات وشعارات، وكلمات مبهمة وبرَّاقة وتُثير الإعجاب والابتسام والغضب، كانت الشيوعية — كما قلت لك — في مقدمة التسميات السياسية التي توضَّحت دلالاتها — في تصوري — بالقراءة والمناقشات والتعرف المباشر. الملاحظة الثابتة التي لم تتغير في نظرتي إلى الشيوعية، منذ سِنِي الطفولة إلى الآن، أنها كانت هي التهمة التي تحرص السلطة الحاكمة على إلصاقها بالأصوات المعارضة غير التقليدية. وكانت التهمة نفسها هي مبعث الذعر الحقيقي أمام كلِّ تحرُّك نضالي، تعد له القوى التقدمية، حتى تلك التي ترفض الماركسية في برامجها. فبصرف النظر عن اعتبار الشيوعية من المبادئ الهدامة، التي يقابل بالسجن اعتناق أيِّ مواطن لها، كانت الشيوعية — كما حاولت السلطة، وأفلحت في تصويرها للملايين من أبناء الشعب المصري، وأنا مواطن مصري — أمرًا بالغ البشاعة والغرابة. ولعلي أستطيع التأكيد — في ثقة — أن السلطة الحاكمة والاستعمار البريطاني معًا قد أفلحا في تخويف القوى

السياسية والاجتماعية من تأثيرات الشيوعية، حتى تلك التي جعلت شاغلها — بحق — قضايا الجماهير ومشكلاتها، وتحدَّدت أهدافها في أُطُر تقدمية. الشيوعية — على سبيل المثال — لا تعترف بالزواج، ومن حقِّ أيِّ رجل وامرأة أن يُقيما علاقة جسدية، بلا رباط اجتماعي أو قانوني، على أن تتكفل الدولة بتربية الأطفال. وطبيعي أن الرجل لا يقصر علاقته بامرأة واحدة، وأن المرأة — أيضًا — لا تقصر علاقتها برجل واحد؛ فالكل أزواج للكل، وليس ثمة رباط من أي نوع. الشيوعية تعني «المشاع»، والمشاع — في العلاقات الجسدية — أن تُصبح كلُّ امرأة زوجًا لكل الرجال، وأن يُصبح كلُّ رجل زوجًا لكل النساء. أما الأطفال فإنهم يلحقون — فور ولادتهم — بدور حضانة تملكها الدولة، فلا يغادرونها إلَّا إلى المدارس، فالجامعات والمعاهد العليا. ثم يلتحق الخريج — فور تخرُّجه — بالجيش الأحمر، ليبدأ — بعد فترة تجنيده — حياتَه كمواطن مسئول، والشيوعي لا يُعَد كذلك ما لم يرفض وجود الله، والذي يُجاهر بإيمانه — أو يُخفيه — يجد نفسه عرضةً لعذابات، أقلُّها السجن، وربما حُكم عليه بالإعدام …

وعثرتُ في مكتبة أبي على «آثرت الحرية» الكتاب الذي ترجمه زكي نجيب محمود لمواطن روسي فرَّ — بأعجوبة — من جحيم الشيوعية. تجسَّدت — في تصوري — لسنوات سجون ومعتقلات وعمليات إعدام بالجملة، وسيطرة حتى على ترددات الأنفاس. تكوَّنت الجزئيات في اللاوعي من أحاديث بعض أصدقاء أبي — ولا أذكر أن أبي قال أمامي في الشيوعية برأي محدد — ومن عبارات الجدران التي كنت أتعلم القدرة على القراءة فيها، ومن كلمات متناثرة في عظات الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع سيدي علي تمراز، بين صلاتَي المغرب والعشاء …

وروَت لي ابنة عمتي عن «حدتو»، ذلك التنظيم السري الذي جعل من دروس التقوية وسيلةً لاجتذاب تلاميذ وتلميذات المدارس (بالمناسبة: هزمني التحيُّر، وأعتقد أن الحيرة لا تزال تتملكني حتى الآن، وأنا أقرأ على الجدران — في أواسط الأربعينيات، والاستعمار قائم في الأرض المصرية، والخطر الصهيوني في فلسطين — نداءً غريبًا: نريد الخبز بدلًا من السلاح. ولماذا لا نطلب الخبز والسلاح معًا؟!) …

ثم أتاحت لي الظروف أن أتعرَّف — بصورة مباشرة — إلى العاملين في حركة السلام — هذا كل ما أذكره من اسمها — وكان لها مكتب في شارع فرنسا، من بين أنشطته إصدار المطبوعات السياسية والثقافية. ولأني كنت أثق في قدراتي الأدبية في المرحلة بين الطفولة والصِّبا، فقد سعيت إلى المكتب، لعله ينشر بعض ما كتبت. كانوا ثلاثة من الشبان، أعمارهم

بين الخامسة والعشرين والثلاثين. لم يقبلوا — أو يرفضوا — ما سعيت إلى نشره، ولم يحاولوا قراءته أصلًا. بذلوا كلمات مشجعة، وتحدَّثوا عن الأهداف التي يعمل لها المكتب. ولم أفهم — في الحقيقة — شيئًا. كانت الكلمات أكبر من ثقافة صبي في نحو الثانية عشرة، ومن وعيه وإدراكه. بل إني أحاول استعادةَ بعض تلك الكلمات الآن، فلا أذكر شيئًا. كل ما أذكره أني أُعجبت بالكلمات التي قالها الشبان الثلاثة، فلم أحاول حتى أن أعرض كتاباتي التي تطلب النشر عليهم …

وغادرت المكتب بوعد — أعلنته — أن تتواصل صداقتي بالشبان الثلاثة، وبقرار — لم أُعلنه — أن أصبح شيوعيًّا!

لم أكن قرأت عن الشيوعية شيئًا، ولم أكن خرجت من حديث الشبان الثلاثة بغير المعنى — الكلمات كانت غايةً في الصعوبة — أن الهدف النهائي للشيوعية توفير الحياة الطيبة لكل إنسان.

كنت — أيامها — أتردَّد على مبنى الطلبة الملحق بالمعهد الديني بالمسافرخانة — وهي غير مسافرخانة القاهرة — لزيارة صديق من طلبة المعهد، تعرَّفت إليه — مصادفةً — في سينما الأنفوشي. كان من أبناء الدلنجات، وأذكر من اسمه: تعلب. وأوضح — في حديثه — أنه يهوى الأدب. وكانت تلك أرضية مناسبة لصداقتنا. والحق أني لم أَعُد أتردَّد على المعهد الديني لمجرد صداقتي للأديب تعلب. فقد أحببت المكان، وأسلوب الحياة فيه: الطلبة بجببهم وعمائمهم، أدوار الشاي التي لا تقل عن ثلاثة، طريقة المذاكرة التي تقتضي هزَّ الرأس بآلية كبندول الساعة، الأصوات المتداخلة والمدغمة، تشكِّل — في مجموعها — تآلفًا هارمونيًّا عجيبًا، الحياة التي يشغي بها المبنى أربعًا وعشرين ساعة. وثمة سبب آخر — أصارحك به — كان يشدُّني إلى المعهد الديني، وتأمل طلبته وقاعاته وحجراته وسلالمه وأبوابه. حتى النوافذ الضخمة والأبواب الحديدية، كنت أُطيل التحديق فيها، أحاول أن أجد لها موضعًا في الصور الكثيرة التي رسمها أبي في مخيِّلتي بأحاديثه عن المواقف العدائية لطلبة المعهد الديني ضد الإنجليز والسراي وحكومات الأقلية، والتي تمثَّلت في عمليات اعتصام ومظاهرات وتفجير قنابل وتوزيع منشورات (كما علمت، فقد بدأ المعهد نشاطه في ٢٦ أبريل ١٩٠٤م، حين صدر قرار سلطاني بتعيين شيخ للمعهد باسم «شيخ علماء الإسكندرية». وكان عدد طلبته في العام الأول ٣٤١، ثم زاد ذلك العدد — في الأعوام التالية — وتضاعف. وكان التعليم في المعهد السكندري يَفضُل التعليم في الأزهر نفسه. كان المعهد

أنبوبة اختبار لحركة إصلاح التعليم الأزهري كما تصورها الإمام محمد عبده، والتي اختار لها مجموعة من نوابغ تلاميذه مثل الشيخ محمد شاكر والشيخ عبد الله دراز وغيرهما).

لم أكن أجد فيمن حولي وفيما حولي ما يُثير أو يلفت الانتباه: الأجساد الضامرة، التصرفات العفوية، الضحكات الرائقة، المناقشات التي كأنها شجرة لها عشرات الأفرع ومئات الأوراق. حتى تشققات الجدران، كنت أحاول أن أربط بينها وبين الأحداث التي لا بد أنها امتدت إلى داخل المعهد نفسه. لم أشهد — في الحقيقة — أيًّا من تلك الأحداث، وإن تَفِد إلى ذاكرتي مظاهرة متلاصقة الصفوف لطلبة المعهد الديني، في انحناءة المسافرخانة إلى شارع صفر باشا، كأنها لقطة ثابتة، فهي لا تملك ما قبل أو ما بعد، وتَدَع التفصيلات للخيال يجسِّدها على النحو الذي يريد.

ساعد على انبهاري بطبيعة الحياة في المعهد، أني كنت أحاول كتابة القصة القصيرة، بل إنها كانت مبعثَ صداقتي للأديب تعلب. جرَّنا الحديث في ظلام سينما الأنفوشي إلى موضوعات شتى. أبدينا ملاحظات في سذاجة قصة الفيلم، وقال إنه يكتب القصة، وقلت إني أكتب القصة، وذكرت له عنوان بيتي، وشرح لي الطريق إلى المعهد الديني. وعندما مِلتُ من شارع الحجاري إلى المسافرخانة، ثم إلى اليسار ليستقبلني المعهد — للمرة الأولى — بالبوابة الحديدية الضخمة، فإنه لم يكن في بالي إلَّا أن ألتقيَ بصديقي الجديد، يعرض عليَّ محاولاته، وأعرض عليه محاولاتي، ونتناقش فيما قرأناه، وآرائنا في الفن …

لكن الطبيعة المتميزة التي كان يصخب بها مسكن الطلبة، احتوتني تمامًا. بدَت عالَمًا غريبًا، وثريًّا، ومناقضًا لطبيعة بيئتي الساحلية. الريف في قلب المدينة، داخل هذا المبنى ذي الطوابق الثلاثة. العادات والتقاليد والقيم والطعام والأزياء. شبان من كفر الدوار والمحمودية وإيتاي البارود والدلنجات ودمنهور وحوش عيسى ودسوق، يُعِدُّون أطعمة يدعونني إليها، فأعتذر. تبدو مغايرةً للطعام الذي أتناوله في بيتنا. أكتفي بالشاي. لا أحبُّه لذاته، وإنما للأكواب الصغيرة يصبُّ منها الشاي من بزبوز براد، أخفى السوادُ لونَه الحقيقي. كلما وضعت الكوب الفارغ، قدَّموا لي التالي، حتى العد الثالث!

امتدَّت صداقتي بتعلب إلى طلبة آخرين. طالت الأحاديث. وقُلت في الشيوعية كلامًا كثيرًا، وإن لم يجاوز المعنى الذي خرجت به من لقائي بالشبان الثلاثة أعضاء حركة السلام: إن الهدف النهائي للشيوعية هو توفير الحياة الطيبة لكل إنسان!

ثم قبلت — بشجاعة، أو بغباء — مناظرةً مع أحد الطلبة حول الفرق بين الإسلام والشيوعية. ولأني كنت أعاني عدم الفهم لتعاليم الإسلام، ولمبادئ الشيوعية في آنٍ؛ فقد

حاولت أن أختصر المناظرة، لأَصِل إلى النهاية التي تُجاوز بي الحرج! علَا صوتي، ونظراتي تتأمل تأثير ما أقول في المشايخ الصغار من حولي: إن الإسلام والشيوعية يلتقيان في هدف واحد، هو توفير الحياة الطيبة لكل إنسان! وأنهيت المناظرة.

وحين عدت إلى المعهد في اليوم التالي، كانت في انتظاري مفاجأة. جلست بين المشايخ الصغار، أنتظر بداية الحديث، وأدوار الشاي، والحياة التي أحببتها ... لكن الدقائق تقضَّت بلا حديث ولا أدوار شاي، ونظرات المشايخ المتأملة، أحسست كأنها التصقت — لثباتها — بجسدي.

قلت: أستأذن.

فاجأني أحد المشايخ بالسؤال: هذا الإطار الأحمر في بيجامتك، هل هو شعار المذهب الشيوعي؟ (لم يكن يشغلني — حينذاك — أن أرتديَ القميص والبنطلون، أو البيجامة!)

كاد الزهو يتسلل إليَّ. أفلحتُ في تصوير نفسي شيوعيًّا إلى الحد الذي بدا معه المشايخ يجدون في ثيابي تعبيرًا عن إيماني بالمذهب ... لكن الأصوات المتداخلة للمشايخ — في اللحظة التالية لإلقاء السؤال — بدَّدَت الزهو والصمت. قالوا كلامًا كثيرًا، ملخَّصُه أن تردُّدي على المعهد لم يَعُد مقبولًا، وأنه قد صدر قرار من العميد بمنع دخولي!

تداخلَت في نفسي مشاعرُ متناقضة: الزهو لخطورتي، والحزن لطردي من المكان الذي أحببته، والخوف مما قد يترتب على ما حدث من نتائج سلبية.

وكان ذلك آخر عهدي بالمعهد الديني.

الإسكندرية مدينة أوروبية

كل الكتابات التي تعرض للحياة في الإسكندرية، منذ أواخر القرن التاسع عشر، تؤكد أنها كانت أشبهَ بمدينة أوروبية الطابع: المباني والمؤسسات والشوارع والميادين والملاهي. وكان الأوروبيون يُشكِّلون قسمًا كبيرًا من سكانها.

تكثَّف الوجود الأوروبي في الإسكندرية منذ دخول الحملة الفرنسية مصر. وبعد تولِّي محمد علي الحكم، ظلَّت أعدادُ الأوروبيِّين في تزايدها، حتى بلغ عدد المتاجر الأوروبية نحو مائة متجر، فضلًا عن عشرة مطاعم للفرنسيِّين والإيطاليِّين والإنجليز، وبعض القهاوي والمخابز الإفرنجية. وكان وجهاء الجاليات الأجنبية يقيمون في الإسكندرية باعتبارها الميناء الرئيس للبلاد، وبوابته من — وإلى — دول العالم. وكان لتفضيل الأجانب للإسكندرية على سواها من مدن مصر — بما فيها القاهرة — بواعثُه العملية — طبع الأجانب! — وفي مقدمتها استخدام الميناء في التصدير والاستيراد. فليس ثمة نفقات نقل داخلي كما هي الحال بالنسبة لبقية المدن، ومناخ المدينة يميل إلى الاعتدال النسبي، بالإضافة إلى إمكانية إنشاء المصانع والمحالج والشركات التي يُعَد التصدير والاستيراد سمةً أساسية لنشاطها. لم يكن العالم قد عرف الطائرات ولا المطارات. والقادم من بلاد بعيدة يركب الدواب في أحيان قليلة، والسفن في أغلب الأحيان. والإسكندرية هي ميناء مصر الرئيس، وبها ما يفوق عاصمةَ البلاد من مقومات المدنية الحديثة. حتى الصحف — ومنها «الأهرام» — كانت تصدر من الإسكندرية ... لذلك كلِّه، كان الأجانب يَفِدون إلى مصر. يواصل القلةُ طريقَهم إلى القاهرة، أو إلى الأقاليم (قهاوي وحانات القرى التي يملكها أروام، ظاهرة امتدَّت إلى أواسط الخمسينيات) أما الكثرة، فقد استقروا في الإسكندرية، يُنشِئون — ويعملون في — المتاجر والمصانع الصغيرة — الكبيرة فيما بعد — والقهاوي والحانات، ويُضفون الطابع

الأوروبي على المدينة، وهو الطابع الذي أتصور أن بعض معالمه — رغم التشوهات التي حاقَت بالمدينة — ما تزال قائمة، تُذكِّرني بالوردة التي تذبل، فلا تغيب رائحتها!

ثمة تقدير أجنبي لعدد الأجانب بالإسكندرية في ١٨٦٨م، بأنه قد بلغ حوالي مائة ألف نسمة، بما يَصِل إلى نصف سكان المدينة تقريبًا. وفي مطالع القرن، جاوز عدد الأجانب المائة ألف، في حين كان مجموع الأجانب في مصر كلها ١٥٠ ألف أجنبي.

ومع أن الفترة من بداية الحرب العالمية الثانية إلى نهايتها، شهدت طفولتي الباكرة، فإني أذكر أجهزة الرادار والمدفعية المضادة للطائرات المتناثرة في امتداد الكورنيش، يقف وراءها جنود الإنجليز. وأذكر الآلاف من جنود الاحتلال كانوا يمرون أمام بيتنا، مشاة ومدفعية وبحرية، إنجليز وأفارقة وهنود — فطنت إلى الفوارق فيما بعد! — وكان أهلنا يُخيفوننا من الأفارقة تحديدًا. إنهم ليسوا بشرًا مثلنا، ففي مؤخرة كلٍّ منهم ذيل! … وسألت أبي — في خوف — عن صحة ذلك، فنفاه بدهشة: إنهم بشر مثلنا وليسوا قردة! … لكنني ظللت أفكر في تأكيدات الجميع مقابلًا لنفي أبي وحده، حتى حاذاني جنديٌّ أفريقي وأنا ألعب مع أخي في الشارع الخلفي. مددتُ يدي — بالفضول — أتأكد من وجود ذيل! … وفوجئ الجندي بما فعلت، وزادَت حيرتُه، وربما تخوفه، حين أسرعت — بكل قوتي — وأخي يتبعني — كالعادة — إلى داخل البيت. ووقف الجندي أسفل السلم يتطلع إلينا بتساؤل وغضب، حتى فتحت أمي الباب، فارتمينا في حضنها! ومن يومها، لم يبرح الخوف نفسي لمرأى أيِّ جندي أفريقي. أتوهم أنه هو الذي حاولت تبيُّن الذيل في مؤخرته! …

وعلى الرغم من مضيِّ عشرات السنين على تلك الواقعة، فإني تذكرتها حين قاد سيارتي سائقٌ سنغالي، أسود البشرة، من مطار نواكشوط إلى الفندق داخل العاصمة الموريتانية!

وظلت الإسكندرية — إلى الحرب العالمية الثانية — بيئة بحر متوسطية، بكل خصائصها، امتدادًا لأوروبا على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط. ثمة الحي اليوناني، والحي التركي، والحي الإيطالي، والحي المغربي إلخ. وكانت اللغات التي يستمع إليها المرء في الشركات الكبرى، ومكاتب التصدير والاستيراد، هي الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والأرمنية، والعربية أحيانًا. أُذكِّرك بأن مهنة أبي كانت هي الترجمة من لغة أجنبية إلى لغة أخرى، أو من إحدى هذه اللغات إلى العربية. كذلك فإن معظم الشركات التي تَعاملَ معها أبي — كمترجم — طيلةَ حياته، كانت شركات أجنبية، مثل الشركة الألمانية للفحومات الحجرية، وشركة كوري للأقطان، وغيرها … بالإضافة — طبعًا — إلى شركات وهيئات وطنية، كالغرفة التجارية بالإسكندرية، وشركة الجراية للورق. وقد أفدت من ذلك كلِّه في روايتي «النظر إلى أسفل».

وكان اليونانيون — أو الأروام — هم الجالية الأجنبية الظاهرة في أحياء الإسكندرية. دكاكينهم وقهاويهم وباراتهم وتجمُّعاتهم، امتدَّت إلى الأحياء الشعبية. لم يقتصر نشاطهم على عملٍ بذاته، وإنما مارسوا كلَّ المهن. الرومي صاحب قهوة وجرسون وسائق وطبيب ومهندس وبارمان، أي مهنة تدرُّ دخلًا طيبًا. وكان أبي يعجب للغاية بطريقة تخليل الخواجة خريستوفيدس البقال للطرشي البلدي!

وإلى ما بعد قيام ثورة يوليو بأعوام، كان للأجانب في الإسكندرية وجودُهم، ونشاطهم الذي يصعب إغفاله … وهو نشاط كان يستهدف — في غالبيته — تطويرَ الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمدينة. يقول عامر وجدي لماريانا في رواية نجيب محفوظ «ميرامار»: إنه كان ينبغي عليها أن تهجر الإسكندرية إلى اليونان. فتهتف في دهشة: ولكننا نحن الذين خلقناها؟! ومع أن ماريانا كانت يونانيةَ الجنسية، وكانت تنطق العربية بلكنة أجنبية، فإنها لم تكن قد رأَت اليونان مرة واحدة في حياتها، فهي قد وُلدت في مصر، وعاشت فيها إلى الممات.

وحتى عام ١٩٥٦م أو نحوه، كانت الجاليات الأجنبية منتشرة، حتى في الأحياء الشعبية. وقد أتاحَت تلك «الميزة» للإسكندرية أن تكون عاصمةً ثقافية لمصر. صدرت عشرات الصحف العربية والإنجليزية والفرنسية واليونانية والإيطالية، وظهرت — للمرة الأولى — مواهبُ سلامة حجازي، وسيد درويش في الموسيقى والغناء، ومحمود سعيد، وسيف وانلي، وأدهم وانلي، ومحمود موسى، وأحمد عثمان في الفن التشكيلي، والنديم، والتونسي، وأبي شادي، وشكري والنشار، والشوباشي، وعثمان حلمي في الأدب والشعر.

وحين تلاحقَت الأحداث السياسية في ١٩٥٦م: سحب الولايات المتحدة والبنك الدولي عرض تمويل إنشاء السد العالي، وإعلان تأميم قناة السويس، والعدوان الثلاثي، وتكشَّف الوجه القبيح للغرب الأوروبي … أحدث ذلك كلُّه تأثيرَه في هجرة معظم الأجانب من الإسكندرية، ومن المدن المصرية عمومًا.

ومع أن بحري من الأحياء التي يتغلَّب فيها العنصر الوطني بصورة واضحة، فلعلِّي ألفت نظرك إلى روايةٍ جميلة اسمها «غالانوس» للكاتب اليوناني ميشيل بيرزيس، ترجمها الدكتور حسن عون، وتعرض لحياة الأجانب في مدينتي: الإسكندرية.

كانت صورة الحياة مغايرةً تمامًا لما أصبحت عليه الآن. كان يقطن بحري مئاتُ الأُسَر اليونانية، التي أنشأت مدارسَ خاصة لأبنائها. وكانت هناك باراتٌ وقهاوٍ تُقدِّم السهرات والشراب والرقص والغناء، غالبية روادها — بالطبع — من الأجانب. وربما استلهم مخرجو

السينما المصرية تلك البارات والقهاوي — المندثرة — لتكون بُعدًا أساسيًّا في الأفلام التي جرَت أحداثُها في بحري، مع أن طفولتي الواعية تعود إلى أواسط الأربعينيات. ولا أذكر أني شاهدت، منذ ذلك الحين، في طول بحري وعرضه، بارًا أو قهوة، لتقديم اللهو البريء — أو غير البريء! — لروَّاده! وكما يروي ميشيل بيريزيس فقد كانت منازلُ شارع فرنسا أشبهَ بالوكالات التي يقطنها الأوروبيون الوافدون. أما الصورة في ميدان محمد علي — ميدان القناصل كما كان يُسمَّى — فقد كانت تتحدَّد في أعداد هائلة من البشر «كقطعان النمل لا تملُّ السير هنا وهناك» (الرواية) وعربات سوارس وحانطور وجِمال تنقل الركاب إلى داخل المدينة وخارجها، وميدان محمد علي — كما تعلم — هو ميدان المنشية، ومعناها المنطقة المنشأة، وتدين بوجودها الرئيس للأجانب الذين انصرفوا لعمليات تصدير القطن المصري إلى مصانع لانكشير الإنجليزية.

وعلى الرغم من تكثُّف إقامة الأجانب في الإسكندرية، في العطارين ومناطق الرمل، فإن عيادة الدكتور مردروس، الطبيب الأرمني الذي كان يُقيم في الطابق الأول من بيتنا، ورواد قهوة المهدي اللبان — أسفل البيت — من الأروام والأرمن والإيطاليِّين، يرطنون بلغاتهم التي يُحادثهم بها أبي أحيانًا. أسأله عنها، فيُجيب وهو يضحك. والبقال اليوناني في شارع الميدان — خريستوفيدس — لا يشتري أبي إلَّا منه. يُثني على بضاعته، وأنه فنان طعام لا مجرد بائع … تعرَّفت من ذلك كلِّه — وغيره — إلى حياة الأجانب، وإلى عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم. حتى علامة التثليث التي طالما فاجأَتْني وأثارَت تساؤلي في بدايات وَعْيِي، تفهمتُها — فيما بعد — (بعد أن فهمتها أُصارحك أن كلمة مسيحي أو يهودي لم تكن تشغلني، أو تضع فرقًا بينها وبين كلمة مسلم — صفتي الدينية — إلى ما بعد حرب ١٩٥٦م).

أذكر الأسرة التركية التي كانت تقطن شقةً في الطابق الأرضي من بيتٍ على الجانب المقابل لبيتنا. يغيب عن بالي صورُ أفراد الأسرة: الزوج والأبناء، وتغيب ظروفُ الأسرة، ومدى اقترابها — وابتعادها — من سكان شارع إسماعيل صبري، فضلًا عن وظيفة الزوج، ومتى بدأت سكناهم للحي، ومتى كانت هجرتهم له. ما أذكره هو وجه الزوجة الذي كان يُطل من النافذة، أحيانًا. كان — بالنسبة لي — وجهًا غريبًا، وجميلًا في الوقت نفسه … فالبشرة تقطر صفاءً ورقَّة، والحمرة الهادئة تختلط بالبشرة البيضاء، والقسمات المنمنمة، فيما عدا العينين اللتين كأنهما بحر صافي الزرقة. كنت صغيرًا، وكان حبي للجمال في ذاته، فلا تشوبه رغبةٌ ما. لاحظتُ أني كنت أُطيل الوقوف في النافذة المطلَّة على شارع

إسماعيل صبري، وأتوقف عن اللعب مع الأولاد إذا انفتحت نافذة الدور الأرضي، وأطلَّ الوجه الملائكي!

أذكر كذلك أسرة يهودية كانت تسكن بالقرب من شارع الميدان. لعبتُ مع أبنائها — أولاد وبنات — في الشارع الخلفي الموازي لجامع سيدي علي تمراز. تناقشنا، واتفقنا، واختلفنا، وتحدَّثنا عن الآباء والأمهات والظروف الأسرية ... لكن اختلاف الديانتين ظل — بلا نصيحة أو توجيه — في موضع منعزل، لا نتناوله أو نقترب منه، فنحن نمارس حياتنا بمطلق الطفولة، نتوضأ في ميضأة جامع علي تمراز، ونقلد الصفوف في صلاتها، ونحاول فهم عظات الإمام في دروس المغرب، ونعجب لأحاديث أبناء الأسرة اليهودية عن صلاتهم التي تُقام بلا موعد محدد، وأنها بتعدد مناسبات النهار، بدءًا من الاستيقاظ، إلى التوجه للنوم.

وكان تعرُّفي إلى الشاعر العظيم ناظم حكمت من خلال صداقة طارئة لشاب يوناني في العطارين. استوقفني قبل أن أدخل بيتنا، وسأل عن الطريق إلى سراي رأس التين. وصفتُ له الطريق، فأضاف سؤالًا وثانيًا وثالثًا. ولاحظ في يدي كتيِّبًا يضم قصائد زجلية، فقال لي إن الشعر الحقيقي يختلف عن تلك الكلمات المنظومة العابثة. وأفاض — بعد أن دعوتُه إلى بيتنا — في الحديث عن الشعراء اليونانيِّين، وإن توقَّف طويلًا أمام الشاعر التركي ناظم حكمت. بدَا شديدَ الإعجاب به، كأنه — الشاعر — نبيٌّ أو قديس! وصحبني — في يومٍ تالٍ — إلى بيته في شارعٍ خلفيٍّ موازٍ لشارع عبد المنعم. تعرَّفت إلى أمه. سيدة في حوالي الخمسين، بدينة لا تُخطئ العين أرومتها، وقدَّمت لنا الشاي أختُه الصغيرة ياسمين. تُصدِّقها لو قدَّمت نفسها إليك بأنها يونانية، وتُصدِّقها لو قالت إنها مصرية. لم تكن تقطع — عكس الأم والأخ — بملامح محددة. وعرفت — فيما بعد — أن الأم، لما مات زوجها، تزوجت من تاجر مصري، فأنجبا ياسمين التي زاوجت — في تفوق — بين المصرية والإغريقية.

ولعلي أتفق مع نجيب محفوظ، وعبد الحميد السحار، وإحسان عبد القدوس، وغيرهم من أدباء الأربعينيات، على أن الجاليات الأجنبية، والمتمصرة، كانت هي واسطة «الجيل» إلى الحياة العاطفية والجنسية. وكان الطرف المقابل في القبلة الأولى لكلٍّ من أبطال الروائيِّين الثلاثة فتاة يهودية، هي التي أغرَت، وحرَّضت، وأغمضَت عينَيها في ترقُّب. وبالنسبة لي، فقد انهزمت في الكوتشينة أمام الجارة اليهودية التي لم تكن جاوزت الرابعة عشرة. وانتظرتُ العقاب الذي يجب أن يناله الخاسر، فقالت ببساطة — أخجلَتني — أمام الجميع: أبوسك!

دنيا جديدة

أذكر أن خطوط الاتصال بالجنس الآخر كانت — في بعض الأحيان — واهية. وكانت — في معظم الأحيان — مقطوعة. وإذا كنت قد لامست النجاح — في مرات قليلة — فإن مبعث ذلك — بالتأكيد — للمصادفة، ولجرأة الجنس الآخر.

كان بيتنا — كما قلت لك — يُطل على الجهات الأربع. وكان البيت المواجه، في شارع رأس التين، يتبع الأوقاف، ويعاني الشيخوخة، حتى إنني كنت أغالب التردد، كلما جازفت بارتقاء سلاله. أما لماذا المجازفة، فلأن مربيتي أم عايدة (الاسم مستعار) كانت تسكن — مع أولادها — إحدى غُرَفه. وكنت أتوق لاقتحام عالم الجنس الغريب الذي أطلَّت به أم عايدة — بمداعبات يدَيها، ونظراتها، وكلماتها الموحية — من بعض نوافذه. وتعرفتُ إلى فاطمة — جارة أم عايدة — فتاة في نحو السادسة عشرة، وإن بدَت أكبر من عمرها. تُذكِّرني بالوصف الذي أطلقه فرج القواد على حميدة زقاق المدق، فهي عاهرة بالسليقة ... لكنني لم أتنبَّه، أو أني كنت أُعاني خجلًا شديدًا. وكما أتذكر الآن، فقد حاولَت فاطمة كثيرًا، فلم أتنبَّه، حتى سألني ولدٌ شقي — اسمه سيف — وهو يقف معي في الشرفة المطلَّة على شارع رأس التين: ما علاقتك بهذه البنت؟

قلت بصدق: جارة أم عايدة.

قال الولد: إذن ... يجب أن تقوم بينكما علاقة ... إنها تدعوك بنظراتها!

تظاهرتُ بإهمال الملاحظة. ثم أعدتُ ترتيب المواقف، فوجدت أن إقامة علاقة مع فاطمة مسألة وقت، وأنه يجب اختصار هذا الوقت!

وبنفسها، جاءت فاطمة إلى شقتنا. فتحتُ الباب لأجدها أمامي. سألت — وهي تبتسم — عن شقيقتي، وأنها — فاطمة — تريد استخدام ماكينة الخياطة. وتعددت زيارات فاطمة، وإن لم تحاول الانشغال عما بيدَيها. تُنهيه، وتذهب.

ويومًا، وجدت فاطمة وحدها في الشقة. كان أخواي يلعبان في الشارع الخلفي. وكانت شقيقتي تزور جيران الطابق الخامس. ووقفتُ على باب الغرفة أرقب فاطمة، تحيك ثيابها على الماكينة، وتُدندن. وقررت — فيما يُشبه الجنون — أن أتصرَّف كرجل. قلت: فاطمة ... أنا عاوز منك حاجة.

قالت دون أن تتوقف: حاجة إيه؟

– بس احلفي إنك ماتقوليش لحد.

علا حاجباها: مش اعرف حاجة ايه؟!

– احلفي الأول.

في استسلام: أحلف.

– برحمة أمك وأبوكي.

ابتسمت: برحمة أمي وأبويا.

– واللي ميتين لك.

– واللي ميتين لي.

– أنا خايف لتقولي لاختي!

– يا أخي ... مش حاقول.

– أنا ... عاوز ... بوسة.

وحتى تُدرك خطورة ما طلبت، فالحق أني لم أكن تذوقتُ طعم القبلة في فم فتاة من قبل، بل ولم أكن تحدَّثت حول المعنى مع أية فتاة. وانتظرت — دهرًا — قبل أن ترفع فاطمة رأسها، وتتجه إليَّ بنظرة، أدركت — فيما بعد — أنها كانت مشجعة، وقالت وهي تضم شفتيها: آسفة يا أستاذ!

كان المفروض — أستعيد ما حدث! — أن أنتزع القبلة المشتهاة، لكن الرفض جرح مشاعري الغاضبة — وهي، للأسف، سريعة التأثر — فقلت من بين أسناني: أرجوكي ... ماتكلمنيش تاني!

وبالفعل، خاصمتُ فاطمة من يومها، حتى جرَت الأعوام، وفهمتُ.

لم أكن — إلى ما قبل البلوغ — أعرف الفرق — تشريحيًّا — بين الشاب والفتاة (أظنك فاهمني!) وكانت ثقافتي الجنسية تقتصر على هوامشَ ومعانٍ مجردة، التقطتُها من أصدقائي وزملاء الدراسة، فلا تُواتيني جرأة على السؤال: وماذا بعد؟ ... أو أحاول التعرف إلى تفصيلات، أُتيح لي — بعد ذلك — معرفتها.

كانت أول علاقة جنسية لي بما لم أتوقعه، أو أعددت له نفسي: مات أبي، فأقام أخي الأكبر في بيت عمي بمحرم بك، وأقامت شقيقتي في بيت عمتي بالرصافة، بينما سافر أخي الأصغر إلى القاهرة ليقيم في بيت عمتي بالمنيرة. أما أنا فقد فضَّلتُ أن أظلَّ في بيتنا، لا أهجره. وكنت أستقبل — أحيانًا — بعض أقارب أبي، أو أمي، أو بعض أصدقاء الأسرة، يسألون عن الأحوال، ويعرضون المساعدة. ولاحظتُ أن أم عايدة كانت تُكثر من التردد على الشقة، تُعِد لي الطعام، وتغسل ثيابي، وتُثير — ونحن نقف في البلكونة المطلَّة على الميناء الشرقية — ملاحظاتٍ تتصل بالجنس على نحوٍ ما. وجاوزَت أم عايدة تلميحاتها — ليلة — إلى البوح. وذكَّرتني باحتضانها لي وأنا طفل، وسكوتي عن مداعباتها بعد أن كبرت. ثم التمعت عيناها ببريق لم أتعرف إليه في فتاة ولا امرأة من قبل: كنت أحتاجك!

أضافت وهي تمسح جسدي براحة يدها: عمك فلان — زوجها — مات وأنا في عز الشباب ... لهذا كنت أحتضنك!

واستطردت بلهجة ملونة: وأحتاجك!

لم أكن أعرف معنى العلاقة الجنسية، ولا أعي تفصيلاتها. ولم أكن — كما صارحتك — أُدرك الفارق بين جسد الرجل وجسد المرأة. وتخلصًا من المأزق الذي وجدتني فيه، قلت لأم عايدة وهي تنزع سروالي: اتصرفي!

وتصرفت! ...

وكانت تجربة قاسية. شملني قرف وتقزز، وظللت — لأيام — أتذكر ما حدث، فيلفني شعور بالغثيان.

حين نظرت إليَّ، ونظرت إليها، لم أكن أتصور أنها ستشارك في تجربتي التالية، الفاشلة. كانت تشغلني تجربة أم عايدة. تصورت أن ما حدث لن يتكرر مع امرأة أخرى. بدا لي الجنس مقززًا، وكرهته ... لكن الفتاة أبطأت في خطواتها عند نهاية الشارع الموازي لترعة المحمودية، ثم توقفت. تشكَّكتُ إن كانت تخصُّني بنظراتها. فلما تلفَّتُّ في الشارع الهادئ — زمان! — وعادت عيناي إليها بنظرة متسائلة، كانت شفتاها قد اتسعتا بابتسامة مشجعة. وواتَتني جرأةٌ ليست في طبعي، وبالذات في علاقتي بالجنس الآخر. كنت أفضِّل هدوء الشارع للمذاكرة، فطويت الكتاب، واتجهت نحوها. صحبتها — في المساء — إلى بيتنا بشارع إسماعيل صبري. انتظرت في محطة الترام أمام قهوة فاروق، حتى أضاءت نور الحجرة المطلة على الكورنيش. واربت باب الشقة، فدخلت البيت، والشقة، دون أن يسألها البواب ولا فضول الجيران: إلى أين؟

ضايقني هدوءها وتحديقها الصامت في أرجاء الشقة. أمسكت أصابعي — متوترة — بساعدها، تقودها إلى غرفة نومي. هزت لفة ورقية بيدها، وقالت: قميص نوم.

واستطردت في هدوء لم تهمله: سأظل معك إلى الصباح، فلا تتعجل! …

جلسنا على طرف السرير، فقبَّلتها. كانت أم عايدة قد نزعت ثيابها وثيابي تمامًا، فتصورت أن هذا هو ما يجب أن نفعله.

هتفت في استنكار: عيب كده!

غالبت الدهشة: ألن …

قاطعتني: بعدين … مش معقول كده!

قبَّلتها ثانية، فلم تُمانع. ارتميت بجسدي العاري عليها. في بالي ما تعلمته من أم عايدة، لكنها انتترت غاضبة: قلت لك بعدين … إنت مش بتفهم؟!

بادلتها الغضب: أمَّال جاية ليه؟

صرخت: أنا بني آدمة يا أخي!

قلت في تخاذل: يعني أعمل إيه؟

– أهدا الأول.

قبَّلتُها للمرة الثالثة. ونسيتُ تحذيرها لي، ارتميتُ عليها. تملَّصَت من قبضتي، وصفعتني. أذهلتني الكراهية في عينَيها: لماذا استدعتني بنظراتها في البداية؟ ولماذا أتت بقميص النوم؟!

قبل أن أفكر في رد الفعل، ما يجب أن أفعله، كانت قد فتحت باب الشقة، وجرت.

وذات مساء، وفي ظروف لا أتذكَّرها جيدًا، أتاحت لي ابنةُ فاكهي بميدان الخمس فوانيس، أن أداعب جسدها. ولأني كنت قد تعلمت أن الفتاة — أية فتاة — يجب أن تظل عذراء، فقد اكتفيت بالملامسة، لكن الفتاة فاجأتني بالعلاقة الكاملة. وبحثت عن الدم الذي يصاحب — كما سمعت — أول العلاقة، فلم أجد شيئًا، وكانت صديقتي تبتسم …

وفهمتُ أنها لم تكن عذراء!

اجتذبتني — فيما بعد — علاقات طارئة. أومأت، فاندفعتُ نحوها بلا تردد، وإن واصل الخيال علاقتي بالمرأة حين ظلت — المرأة — في مجال التصور. عود على بدء. أُسلم نفسي للعادة السرية، أقيم علاقات لا حصر لها مع بنات الجيران (أذكرك بفاطمة) وصور

الجميلات في الصحف، وربما «ألفت» فتاة لا وجود لها في الواقع (أصارحك بأني أفدت من ذلك في روايتي «النظر إلى أسفل». تعرفت إلى «العقدة» أو «التيمة» في تجربة شخصية، أثناء زيارة عمل في ١٩٧٥م للعاصمة الموريتانية نواكشوط، كتبت — بتأثيرها — قصتي القصيرة «الأكسر»، ثم ضفَّرتها في «النظر إلى أسفل» برؤًى وخبرات وذكريات، ينتسب بعضها إلى تلك المرحلة الباكرة في حياتي).

ومع أني كنت أمارس العادة السرية في دور السينما، للمشاهد التي تُثيرني، وفي حدائق رأس التين، وعلى الكورنيش، يسعفني الخيال بما أفتقده، فإني أعجب — الآن — للجنون الذي كان يدفعني إلى توهم الحياة منفردًا! واجهت — بالفعل — مآزقَ صعبة، واستمعت إلى ملاحظات وشتائم، وزغدني أحدهم — للعيب الذي رآه — وإن لم تشتطَّ ردود الأفعال يومًا، فتصبح إيذاءً بدنيًّا!

ولما وصلت إلى القاهرة للبحث عن عمل في إحدى الصحف، أقمت في بنسيون بشارع فهمي المتفرع من ميدان الفلكي. وكانت مشرفة البنسيون امرأة، تأتي لنا بالنساء من ملاهي وسط البلد، ومن كلوت بك. ثم أقمت مع إحداهن في شقة مستقلة بشارع نوبار. وتعرفت — أثناء ذلك كله — إلى ما كان مجهولًا في الغابة الوحشية.

اللي مالوش كبير يشتري له كبير. مثل مصري أتذكَّره الآن، وأتفهم دلالاته. لم أكن مسئولًا حتى عن ذاتي. لا أحد يناقشني، أو يبذل لي النصيحة. ما أريده أفعله، لا يهمني إن كان خطأً أو صوابًا. حتى النتائج لا تشغلني، ولا أتدبرها. وكنت أحلم — أحيانًا — بالصدر الذي أرتمي عليه، وأبكي، أو الصيحة التي تزجرني لتصرُّف خاطئ أكون قد ارتكبته. بدا لي الجنس — بعد أن تعرفت إلى ملامحه جيدًا — مثل الماء المثلج، لا أرتوي منه أبدًا، لولا عاملان حالَا دون أن أفقد نفسي بصورة كاملة:

العامل الأول هو نشأتي الدينية، يُزلزلني — عقب كل علاقة — ما هو أقسى من تأنيب الضمير. أتذكر أيام المذاكرة في أبي العباس، وعظات الشيخ عبد الحفيظ في علي تمراز، والأذان، وصلاة العيدين، وتسابيح الفجر، والموالد، وحلقات الذكر، وقسوة أمي، ونصائح أبي، وسِنِي أدائي للصوم في كل الأيام، وصداقتي لشبان يعرفون للدين قدرَه. وكنت أبتعد عن العلاقة تمامًا، وأُتمتم بكلمات الاستغفار إذا تناهى صوت المؤذن من المسجد القريب، فاجأني — وفتاتي — في الموقع الذي اخترناه: ردهة صغيرة أمام باب السطح أعلى بيتها. أقف على شاطئ الأنفوشي، تطمئن إلى خلو البيت، فتُبلغني برفع الغسيل من مناشره،

وتُلقي بنا المتعة في جزر لا صلة لها بالزمان ولا المكان، حتى أنهض مفزوعًا على صوت الأذان من الجامع القريب، ثم أعود — بعد انتهائه — إلى عناق فتاتي!

ربما تؤذيك صراحتي. وقد تغيب عليَّ ما كنت أفعله ... لكن ذلك ما حدث بالفعل.

أما العامل الثاني فهو القراءة. كنت أقرأ كثيرًا، ما لم أبِعْه من كتب أبي، وما يُعيره لي الأصدقاء، أو أستعيره من مكتبة النن الأب بشارع الموازيني، والنن الابن بالقرب من بيتنا، ومكتبة عم حجازي أول شارع الميدان.

ومع أن القراءة لم تصرفني عن ممارسة العادة السرية، بل كنت ألجأ إليها — أحيانًا — بعد قراءتي لرواية مثيرة، فإنها لم تجعل الجنس في حياتي بحرًا وحيدًا أسلم نفسي لأمواجه، فأغرق!

وفررت من ذلك كله، عندما تزوجت قبل أن أبلغ الثالثة والعشرين.

عالم من القراءة

لا شك أن الحواديت التي كنَّا — إخوتي وأنا — نستمع إليها من أمي، وجدِّي لأمي، وبعض سيدات العائلة، سبقت القراءة في حياتي. حواديت مجهولة المؤلف، توارثَ روايتَها أجيال: الزوج الذي «يحمل» في سمانة ساقه بدلًا من الزوجة المريضة ... يا ست يا ستنا ياللي قصرك أعلى من قصرنا ... ماتدنيش عنقود عنب ... للعليل اللي عندنا؟ ... يا بير يا بير ... ادِّيها صراصير كتير ... طبل طار ... طبل طار ... خدها ابن السلطان وطار ... إلخ ... بالإضافة إلى الحواديت المستمدة من ألف ليلة وليلة، وإن داخلها — من الرواة — حذف وإضافة، بما يسهل علينا — نحن الصغار — فهمه.

وكانت مكتبة أبي بدايةَ تعرُّفي إلى عالم القراءة العامة. لا أذكر متى تنبهت إلى كومات الصحف والكتب التي امتلأ بها ذلك الدولاب — المغلق دائمًا — في غرفة نومنا، نُتابع أبي، يفتحه — أحيانًا — ويُغلقه، بعد أن يقلِّب — لفترة — فيعثر على الكتاب الذي يطلبه، أو يُعيد كتابًا أتمَّ قراءته، أو فيما يتطلب عملُه أن يقرأه. كان أبي مترجمًا، يترجم من العربية إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والتركية والإيطالية، ويترجم من هذه اللغات إلى العربية. وكانت ملاحظتي أنه لم يكن يأخذ أو يُعيد سوى قواميس اللغة. أما الكتب الأخرى التي كانت تضيق بها أرففُ المكتبة، فقد علمت من ملاحظات الهوامش التي كان يحرص على تدوينها، أنه قد سبق له قراءتها.

كانت أيام طه حسين بدايةَ ما أذكره من قراءاتي في الكتب الأدبية. قبلها قرأت العبرات والنظرات وماجدولين وغيرها من كتب المنفلوطي، وبعض الروايات المترجمة، من بينها — ربما — الفرسان الثلاثة لألكسندر دوماس، فضلًا عن مجلات ثقافية ودينية وقصص للأطفال كتبها سعيد العريان وفريد أبو حديد وكامل كيلاني، أُلِّفت، أو تم تبسيطها، من أعمال روائية لأدباء معروفين. كانت قراءتي للأيام مصادفة. أراد شقيقي الأكبر أن يستأجر

دراجة. المقابل ثلاثة قروش، بينما لم يكن معه سوى قرشين فقط. وفي بساطة، سحب كتابًا من دولاب أبي، ودفعه إليَّ قائلًا: تشتريه بقرش؟

كان ذلك الكتاب هو الأيام.

لم أستطع فهمَ شيء في القراءة الأولى، إنما هي انطباعات عن صبي صغير وترعة وسور وعفاريت ومردة وغيلان واحتفالات بالمولد النبوي، ورسوم للفنان بيكار. ثم أعدت — بعد أقل من شهر — قراءة «الأيام» للمرة الثانية. واستطعت أن أُلمَّ ببعض التفصيلات، وتبدَّت أمامي صورة الحياة — وإن غلب عليها الغموض — في تلك القرية من قرى الصعيد. وتعاطفت مع «صاحبنا» الذي عانى العمى، والوحدة، وإيذاء الفقيه والعريف. وتأثرت لموقفه أمام أصحاب أبيه وهو يتلعثم في تلاوة سور القرآن الكريم. وفرحت لما أفلح في القراءة بلغة سليمة، وأعصاب هادئة، وإن لم يفارقني الإشفاق على المأساة التي كانت تنبض بها سطور الكتاب، والتي كان صبيُّنا الضرير بطلًا لها. وأذكر أني لم أُفلح — حتى في القراءة الثالثة — في فهم كلمات الختام التي وجَّهها الراوي إلى طفلته عن «ذلك الملك القائم الذي يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلي الليل في هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلي النهار في سرور وارتياح. أنت مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار؟ لقد حنا يا ابنتي هذا الملك على أبيك، فبدَّله من البؤس نعيمًا، ومن اليأس أملًا، ومن الفقر غنًى، ومن الشقاء سعادة وصفوًا.» ثم عرفت — فيما بعد — أن ذلك الملك الحارس هو زوجته. وكان اكتشافي لما أراد الراوي أن يقول، ثم إعجابي المتزايد بتلك الكلمات التي تُعَد — في تقديري — تعبيرًا متفوقًا عن الخصائص الجمالية في أسلوب طه حسين … كان ذلك هو الدافع لأن تكون محاولتي المطبوعة الأولى باسم «الملاك»، وأن تكون متأثرة — إلى حد كبير — بأسلوب طه حسين، كما تبدَّى في ختام «الأيام».

أحببت القراءة — والأدب بالتالي — من قراءاتي المنوعة في مكتبة أبي. عزفت عن مشاركة الأولاد ألعابَهم في الشارع الخلفي لبيتنا: كرة الشراب وأولها إسكندراني، والنحل، والبلي، وصلَّح، وغيرها. حتى السباحة التي يُقبل على تعلُّمِها — ربما غريزيًّا — أبناءُ الإسكندرية، لم أحاول تعلُّمَها. تحدد عالمي في القراءة. أحببتها، وأقبلت عليها. وحتى بعد أن جاوزتُ سِنِي الصِّبا، لم أحاول فهمَ الطاولة والدومينو والكوتشينة، ولم أحاول — بالتالي — لعبَها. وعندما حاول صديقاي عبد الفتاح الجمل وكمال الجويلي تعليمي إياها، عجز فهمي القاصر عن إدراكها. وأذكر أني تصورت — يومًا — إجادتي للعبة الكوتشينة. وما كدت

أبدأ في توزيع الورق، حتى انتتر الجالس أمامي، وقال: قم ... طريقة إمساكك بالورق خطأ! ... وطالت بي الجلسات في قهوة الكورسال. يحاول الجمل، والجويلي، والراحل عبد الحميد عبد النبي، والكاتب المسرحي علي سالم، أن يُتيحوا لي تفهُّمَ تلك اللعبة الصعبة، المعقدة: الطاولة. ثم هزمنا اليأس!

أذكر من قراءاتي الأولى: كتابات فائق الجوهري في الثقافة الجنسية، ومجلة «الإسلام» التي كان يُصدرها أمين عبد الرحمن. قرأت فيها قصة الإسراء والمعراج، وتمنيتُ أن أُعيد — ذات يوم — كتابتها، ومسرحية ستيفان زفايج «إرميا»، وهي تتناول تصفيةَ نبوخذ نصر البابلي مملكة يهوذا في العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد، ترجمها أستاذنا مفيد الشوباشي بتكليف من أصحاب جريدة «البصير» السكندرية. وعرفت — متأخرًا — أن المسرحية كانت جزءًا من مخطط يستهدف تهيئةَ الأذهان لقبول فكرة الدولة الصهيونية. وحين ناقشت الشوباشي — فيما بعد — في ظروف ترجمته للمسرحية، ابتدرني مقاطعًا: كانت الترجمة مقلبًا لم أفطن إليه ... لا أحب أن أتذكَّرَه ولا أحب أن تُذكِّرَني به!

وقرأت في سنٍّ، لعلها أصغر من أن أعيَ فيها كلَّ ما أقرؤه جيدًا: تاريخ الجبرتي، والسيوطي، وابن إياس، وفتاوى ابن تيمية، ومقدمة ابن خلدون، وأدب الماوردي في الدين والدنيا، وما أُتيح لي من فقه الشافعي، وتفسير القرطبي، وأدب الجاحظ، وابن قتيبة، وفلسفة ابن رشد، وتصوف الغزالي، ووفيات ابن خلكان، وقرأت السِّيَر الشعبية: الزير سالم، والهلالية، وعنترة، وسيف بن ذي يزن، والظاهر بيبرس، وذات الهمة، وقرأت ما صدر من أعداد خاصة في مناسبة مرور ألف عام على ميلاد أبي الطيب المتنبي، لمجلات الهلال ودار العلوم وغيرها، وبعض الكتب التي تناولت سيرتَه وشعرَه. بدا لي شخصية مثيرة، أقرب إلى تراجيديات المسرح الإغريقي. وأيقنتُ أنه قد ملأ الدنيا بحق، وشغل الناس فعلًا. وشغلني المتنبي لأعوام طويلة، تالية، حتى بعد أن أصبحت مكتبةُ أبي ذكرى بعيدة.

الإثارة في عبقرية المتنبي الشعرية، تُوازيها — أو ربما تبدو أشدَّ إثارة — رحلة طموحه الغريبة التي انتهت بمأساة. جمع بين القوة الإنسانية والضعف الإنساني. خاض المعارك إلى جانب سيف الدولة. ولمَّا أحسَّ بما يُقلق، همَّ بالفرار. ومن قصائده:

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تموت جبانًا

لكن سعيه وراء الولاية والمكانة الأعز، دفعه إلى مواقف صغيرة، حتى وصفه أحدُ دارسيه بأنه أعظم شعراء العرب فكرًا وأملًا، وإن كان من أدناهم نفسًا وأشدِّهم جشعًا (محمد جلال، المتنبي، مجلتي، سبتمبر ١٩٣٥م). كان المديح بُعدًا رئيسًا في قصائد الشعراء وقتذاك، فبدَّل المتنبي حتى في هذا البعد، عندما قصر مديحه على الملوك. وحين دعاه الوزير الصاحب بن عباد لزيارة أصفهان، وكتب إليه يُرغِّبه في الزيارة، ويبذل له الوعود، إلى حدِّ مشاطرته — المتنبي — نصفَ أموال الوزير، إنْ هو مدحه بقصيدة واحدة. قال المتنبي: «بلغني أن غليمًا معطاء، يُدعَى الصاحب، يريد أن أزوره وأمدحه، ولا سبيل إلى ذلك، فأنا أترفَّع عن مدح غير الملوك.» وعانى سيف الدولة غرور المتنبي وغطرسته، حتى إنه — المتنبي — اشترط على سيف الدولة ألَّا يُقبِّل الأرض بين يديه، وأن يُنشده الشعر وهو جالس. بل إن سيف الدولة كان يُقبِّل رأس شاعره ليُصالحه إذا أغضبه. ولكن أبا الطيب هو الذي تحمَّل إيذاء أعوان سيف الدولة، وإيذاء سيف الدولة نفسه، له …

وإذا كانت حياة المتنبي — في ظاهرها — حياة مجد وفروسية، فإنها — في الحقيقة — كانت حياةً مضطربة، تزداد تعقيداتُها بتعاظم طموحاته، وانتقاله من بلد إلى آخر، حتى لقيَ مصرعه في دير العاقول …

قيمة المتنبي الأولى هي تجديده المؤكد في مسار الشعر العربي. مع ذلك، فإن العبيدي في «الإبانة عن سرقات المتنبي» يجد في المتنبي لصًّا، لا أكثر. يقول: «لقد تأملت أشعارَه كلَّها، فوجدتُ الأبيات التي يفتخر بها أصحابه، وتعبِّر بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة، ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة.» وقد عبَّر القاضي الجرجاني عن تباين الآراء في شخصية المتنبي بقوله: «إن أهل الأدب ما بين مطنب في تقريظ المتنبي، منقطع إليه بجملته، منحط في هواه بلسانه وقلبه، يتلقَّى مناقبه إذا ذُكرت بالتعظيم، ويُشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم، ويعجب ويعيد ويكرر ويميل على مَن عابه بالزراية والتقصير، ويتناول مَن ينقصه بالاستحقار والتجهيل، فإن عثر على بيت مختل النظام، أو نبَّه على لفظ ناقص عن التمام، التزم من نصرةِ خطئِه وتحسينِ زللِه، ما يُزيله عن موقف المعتذر، ويتجاوز به مقام المنتصر، وعائب يروم إزالته عن رتبته، فلم يسلم له فضله ويحاول حطَّه عن منزلةٍ بوَّأه إياها أدبه، فهو يجتهد في إخفاء فضائله، وإظهار معايبه، وتتبُّع سقطاته، وإذاعة غفلاته. وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأديب فيه. وكما أن الانتصار جانب من العدل لا يسدُّه الاعتذار، فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار، ومَن لم يفرق بينهما وقف بين الملامة بين تقريظ المقصِّر وإفراط المفرِّط …»

وأذكر أن الكتابة عن حياة المتنبي تخلَّقت في داخلي كالأمنية، حتى كتبتُ روايتي «من أوراق أبي الطيب المتنبي» وإن خرجَت في صورة غير التي كنت أتصورها لها، فهي لم تقتصر على رحلة الشاعر، وإنما ناقشت همومًا وشجونًا مصرية، وتحول المتنبي إلى شاهد على عصره، يشاهد، ويسجل، ويكتفي من المشاركة بالتأييد القلبي.

ولعلي أستطيع أن أقرر — في ثقة — أن قراءاتي لروايات جرجي زيدان التي تناول فيها التاريخ الإسلامي، كانت هي المدخل للأعمال التي حاولت فيها استلهام — أو توظيف — التاريخ. استفزَّتني، وتمنيت أن أستلهم التاريخ في أعمال مماثلة. الأثر نفسه — تقريبًا — أحدثَته في نفسي روايات علي الجارم «غادة رشيد»، و«فارس بني حمدان»، و«هاتف من الأندلس»، و«الشاعر الطموح»، وغيرها. وإذا كان كتاب الجارم «الشاعر الطموح» قد سقط من بين مراجعي في رواية «من أوراق أبي الطيب المتنبي» فإن ذلك كان من قبيل النسيان، لا التناسي!

كان العقاد في مقدمة من استهوتني كتاباتهم. قرأت له «في بيتي»، فكان المدخل لقراءة كل ما استطعت قراءته وفهمه من مؤلفاته. بدا لي العقاد صعبًا في البداية. حاولت الإفادة من المعلومات التي تشتمل عليها كتاباته، ثم حاولت أن أجاوز التلقِّي السلبي إلى المناقشة والفهم. وتصورت العقاد — في حواري الصامت مع أعماله — عملاق الجسد والفكر. ساعد على ذلك صوره التي كانت تنشرها الصحف، تَسِمها جدِّية واضحة. ساعد على ذلك أيضًا لقب «الأستاذ» الذي كان يعنيه، حتى لو لم يسبق اسمه، بالإضافة — طبعًا — إلى تلك الأستاذية الواضحة في كل ما كتب. كان يُحسن القراءة والاستيعاب والتوصل إلى وجهة نظر محددة، بحيث لم تشغله الانتقادات التي عابَت على كُتُبه خلوَّها — إلَّا فيما ندر — من المصادر والمراجع، يُذكِّرني بألدوس هكسلي، ميزته الأولى تلك الملكة المذهلة، بهضم المعارف على تنوُّعها، وإعادة تقديمها بأسلوب ومنهج مميزَين. وتمنيتُ أن ألتقيَ بالعقاد، أقترب منه، أُصافحه، أتعرَّف إلى ملامحه وانفعالاته، يدور بيننا حوار.

ويومًا، كنت أعبر الطريق في شارع صفية زغلول، عندما اتجهَت عيناي إلى الوجه الذي طالما تمنيت أن ألتقيَ بصاحبه …

كان العقاد — بجسده العملاق وملامحه الصارمة — يجلس في المقعد الخلفي لسيارة عتيقة الطراز. تهيبت، وترددت، وتلعثمت — لك أن تُدرك مشاعري! — قبل أن أتقدم من نافذة السيارة، وأهمس: مساء الخير!

ردَّ الرجل التحية بمثلها. وسألت وأجاب. وكان نبض الحوار ما كتبه في ميزانه عن فلسفة الثورة.

بدا لي الرجل مغايرًا لكل ما قرأته عنه، وللصورة التي حاول ذهني القاصر أن يُجسِّدها. كان أبويًّا وودودًا وطيبًا. وتعانق — فيما بعد — حبي لشخصه وكتاباته في آنٍ معًا. وعندما تهيأت للسفر إلى القاهرة، كان العقاد في مقدمة مَن أتطلع إلى لقائهم، أتعلَّم على أيديهم، أناقشهم، أُفيد من توجيهاتهم. والتقيت في القاهرة بغالبية الذين تطلَّعت للقائهم، فيما عدا العقاد. ترددتُ — بالخجل الكامن في أعماقي من المشاركة في المجتمعات — عن زيارته في ندوته الأدبية. ولأن الغد له غد، فقد تواصلَت الأيام، حتى رحل العقاد عن عالمنا في الثالث عشر من مارس ١٩٦٤م.

كانت مكتبة أبي — برغم ضخامتِها وتنوُّعِها — خاليةً من كتاب لسلامة موسى. لم أحاول — بعد أن تعرَّفتُ إلى كتابات الرائد العظيم — أن أسأل أبي: هل قرأ سلامة موسى؟ ... ولا أن أُناقشَه — بالتالي — في كتاباته. وكنت أعزف عن اللعب — أحيانًا — فأجلس إلى شاكر، الصنايعي بدكان الأسطى عبد الهادي الترزي أسفل بيتنا. أُناقشه في قراءاته، ويناقشني في قراءاتي، وتمتد المناقشات، تنحسر الموضوعية أمام الرغبة في إظهار الثقافة، وتأكيد الذات، وإن اعترفت — الآن — أن شاكر كان مثلًا لهؤلاء الذين يجاوزون — بالتثقيف الذاتي — كلَّ المراحل الأكاديمية في التعليم، فهو زبون دائم لحمامة النن بائع الصحف بشارع إسماعيل صبري، ولوالده، بائع الصحف أيضًا — والكتب القديمة — بأول شارع الموازيني، ويُعيره عمُّ حجازي — صاحب المكتبة الحجازية الشهيرة على ناصية شارعَي الميدان وإسماعيل صبري في أبوة غريبة — كلَّ ما يرغب في قراءته من كتب جديدة، أو قديمة، فلا يحصل منه على مقابل ما. بل إنه يُوبِّخه إذا طال احتفاظه بالكتب، فهو قد انشغل عن القراءة إذن، وإذا أعادها بلا قراءة، فهل اكتملت ثقافتُه حتى يفرض الاختيار فيما ينبغي — أو لا ينبغي — قراءته؟!

لم يكن سلامة موسى من الكُتَّاب الذين قرأت لهم، وإن ظللت شغوفًا بالتعرف إليه من الكتابات التي ناقشَت آراءه، مؤيدةً، أو متحفظة، أو رافضة، ومن أحاديث شاكر المتحمسة عن مقدمة السوبرمان والاشتراكية والتصنيع والعلم والتقدم والتحديث ونبذ الخرافة. وطالبته — لكي تتساوى كفَّتا المناقشة — أن يُعيرَني مؤلَّفًا لكاتبه الأثير ...

وقرأت «تربية سلامة موسى». شدَّتني البساطة التي تناول بها الرجلُ أخطرَ القضايا، وإن أشفقت من حرصه على تأكيد انتمائه الطائفي، بحيث تناثرت كلمة «القبطية» ومشتقاتها في صفحات الكتاب بما يَصِل إلى المبالغة. عمَّق ذلك الإحساس ما كنت قرأته في كتاب أستاذنا الكبير الراحل الدكتور محمد محمد حسين «في الأدب المصري الحديث» والذي أدان فيه الحركات الطائفية والشعوبية، والمؤامرات التي تستهدف تشويهَ إسلامية المجتمع المصري، فضلًا عن أحاديث صديقي فتحي الإبياري التي كانت تضع سلامة موسى في موضع الإدانة دائمًا، وتعيب عليه دورَه المشبوه في حياتنا الفكرية.

وحتى الآن، فإن ملاحظتي السلبية في كتابات سلامة موسى، هي حساسيته الطائفية المفرطة، وملاحظات أخرى تتصل برفض التراث العربي، والحضارة العربية، والتركيز على المدنية الأوروبية في إطلاقها. وفيما عدا ذلك، فإني أدين للأبعاد الإيجابية في كتابات سلامة موسى بالكثير من أفكاري وآرائي وإدراكي للأمور.

كانت مكتبة البلدية الملاصقة لمدرستي — الإسكندرية الثانوية — أولى المكتبات العامة التي تردَّدتُ عليها. أقضي فترات الفسح، أو الحصص التي بلا مدرِّسين، في قاعتها الفسيحة المطلَّة على شارع الرصافة، أقلِّب في البطاقات، فأختار الكتاب الذي يشدُّني اسمُه، أو اسمُ صاحبه. لا أطلب كتابًا بالذات، ولا كاتبًا بالتحديد؛ فالقراءة مطلبي إطلاقًا، أقرأ وأقرأ وأقرأ، في كل شيء، ولكل الأسماء. عشرات المجلات والكتب، وآلاف الصفحات، وملايين الكلمات والأسطر. تُبهرني فكرة، فأعتنقها، ثم تطويها قراءة اليوم التالي. فلما كبرت، صرتُ أُقبِل على القراءة وأنا أتمثَّل قول فرنسيس بيكون: «اقرأ لا لِتُعارِض ولا لتُفنِّد، اقرأ لا لتُصدِّق، ولا لتأخذ الأمر قضيةً مسلَّمة، ولكن لكي تفكر وتَزِن الأمور.»

أحاول الآن أن أتذكَّر كتابًا فرض نفسه — في ذاكرتي — على عشرات الكتب التي أُتيح لي قراءتها — آنذاك — فلا أُوفَّق، وإن كنت أذكر جيدًا تلك الدقائق الخصبة، والمثمرة، التي تسبق تسلُّمي للكتاب الذي طلبته. أتصفح الدوريات المصفوفة على حوامل خشبية في قاعة القراءة: الهلال والرسالة والثقافة والمختار وغيرها من زاد المعرفة. الموضوع الذي يستهويني أقرؤه، فلا أتركه حتى أُتمَّه. وربما أرجأت قراءة الكتاب الذي طلبته إلى اليوم التالي، لاستكمال قراءة مواد إحدى المجلات. في مقدمة كتابي «مصر في قصص كتابها المعاصرين» رويتُ لك حيرتي بين القراءات. تهزُّني أفكار آخر كتاب قرأته، ولا أعانق فكرة واحدة أبدًا. تعرَّفت إلى جزر مجهولة، وأسماء لم أكن طالعتُها من قبل. ووجدت في

المجلات الثقافية تنوُّعًا يرجوه ذلك الذي يُنشد القراءة لذاتها، وأحببت الفلسفة والتاريخ والتراجم والسير وقصائد الشعراء. أما القصة، فقد أحببتها. الأدق أني كنت أحببتها مطلقًا، صارت عالمي الحقيقي — قارئًا وكاتبًا — منذ بهرَتني أيام طه حسين، فحاولت تقليدها في كُتَيِّب مطبوع، أشبه بمرثية لأمي التي غيَّبها الموت قبل أن أبلغ العاشرة. ضمَّنته جملًا للمنفلوطي، وتيمور، والحكيم، وعبد الحليم عبد الله، والسباعي، وغراب، وآخرين. لم أكن تعرَّفتُ إلى نجيب محفوظ بعد، لكن بصمات «الأيام» كانت واضحةً في التناول، وفي الجمل المطولة التي نقلتها — ببساطة — من كتاب طه حسين.

وتعرَّفت إلى يوسف كرم — للمرة الأولى — في مكتبة البلدية. قرأت له سلسلةَ كُتُبِه في تاريخ الفلسفة الحديثة. شدَّتني بساطتُه وسهولة لغته. استطعت فهمَ كلماته بأيسر من فهمي للمواد الدراسية. ومع تنوع قراءاتي في الفلسفة، فإني لم أجد مثل هذا التعريف المبسَّط لماهية الفلسفة ودورها: «الفلسفة ليست مقصورةً على تقرير الواقع ودفع الشبهات عنه، وإنما غرضها الأكبر تفسير الواقع بالرجوع إلى مبادئه، أي وضع نظرية تستتبعه كنتيجة لازمة، وتجلوه من كل جفاء.» أسهم يوسف كرم في تعرُّفي إلى تاريخ الفلسفة. المؤكد أني لم أكن أعرف تطوُّرَ الفكر الفلسفي في العالم، لو لم أقرأ كُتُبَه عن الفلسفة اليونانية، والفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، والفلسفة الحديثة، إلخ … بل إن تناوله للفلسفة الوجودية أعفاني من التناول الخاطئ الذي كتبه — فيما بعد — أنيس منصور. احترامي للفلسفة الوجودية يجد بدايتَه في كتابات يوسف كرم. الوجودية كمذهب فلسفي، العلمية والموضوعية والنأي عن الإثارة التي اتسمت بها كتابات تالية. ولم أكن أعرف عن حياة الرجل ولا ظروفه الخاصة أيَّ شيء، حتى قرأت في الصحف عن انهيار المنزل الذي كان يُقيم فيه بطنطا، وضياع ترجمات لمؤلفات فلاسفة الإغريق، وأصول كتاب كان قد انتهى من تأليفه عن الأخلاق. وشغلني — من يومها — الجانبُ الشخصي في يوسف كرم، أسأل وأتابع وأقرأ، حتى لحقَته الوفاة يوم الخميس ٢٨ مايو ١٩٥٩م، وكان في الرابعة والستين من عمره.

ومع أن الاستعارة الخارجية في المكتبة الأمريكية بشارع فؤاد — طريق جمال عبد الناصر فيما بعد — قد أضافت الكثير إلى تكويني الثقافي، فإن موسوعة ول ديورانت «قصة الحضارة» كانت هي الكتاب الأهم الذي ترك — في ذهني — تأثيرات مؤكدة. بل لعل قراءتي لتلك الموسوعة كانت هي المدخل الفعلي لاهتمامي بدراسة التاريخ، كقارئ

في البداية. ثم تناولي لأحداثه وتحليلاته بعد اشتغالي بالكتابة، سواء في صورة توظيف أحداث التاريخ في الأعمال الأدبية، أو في صورة دراسات كما في «مصر في قصص كتابها المعاصرين»، و«مصر من يريدها بسوء». الكل يكتب ويُبدع، فلا يخلد إلَّا الأقل من المؤلفات المهمة. ولعلي لا أُجاوز الحقيقة حين أضع موسوعة ديورانت في مقدمة أهم مائة كتاب في السنوات المائة الأخيرة. بل إني أتفهم الآن — بعد مرور ما يزيد عن ثلاثين عامًا على قراءة ما كان قد تم ترجمته من موسوعة ديورانت — قول توينبي إنه «ما من عقل واحد، أو حياة واحدة، تستطيع أن تقوم بهذه المهمة على الوجه الأكمل.» توضح لي في «قصة الحضارة» مسار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى: الدين والحكم والسياسة والزراعة والاقتصاد والعلم والثقافة والفن ... إلخ. بانوراما متكاملة للجنس البشري منذ فجر التاريخ. وأتصور أن تأثير موسوعة ديورانت كان دافعًا لأن أُعلن في غلاف محاولتي الباكرة «ظلال الغروب» أني أُعِدُّ لعمل كبير، اسمه — فيما أذكر — «الشعلة المقدسة» عن تاريخ مصر، منذ شق النيل مجراه في أرض مصر، وتخلقت الحياة على ضفَّتَيه. وبالطبع، فإن شعلتي المقدسة لم تُجاوز حدَّ الأمنية!

وقد أحببت أبطال الإلياذة والأوديسا لهوميروس. إنهم يحيَون في البطولة، ويموتون فيها. رجال حقيقيون كاملون، يَعُون دورهم في الحياة وما يجب أن يفعلوه، همُّهم الإفادة من كل ما وهبَتهم الآلهة من قدرات وإمكانات، ليُثبتوا لأنفسهم أنهم على مستوى المسئولية التي يواجهونها. وطبيعي أن هؤلاء الأبطال ليسوا وقفًا على مجتمع بذاته، ولا زمان بالتحديد. ولعلي أذكِّرك بشخصيتَي الأستاذ بكر رضوان في «الأسوار» وشخصية علي عبد الحسين في «إمام آخر الزمان».

حين كنت أعد أشهر الصيف ضيفًا على عمتي بحي المنيرة، كان التردد على المكتبة الفرعية لدار الكتب القريبة من البيت، في مقدمة ما أحرص عليه. تعرَّفت فيها — على مدى أعوام — إلى آدم متز، وراسل، وكامي، وفوكنر، وهمنجواي، ودي بوفوار، ولاسكي، وفيتزجرالد، وبروست، وفرويد، وستاندال، وفلوبير، وبلزاك، وزولا، وديكنز، وديستويفسكي، وتشيكوف، وجوركي، ونيرودا.

لست أذكر متى تعرفت إلى البير كامي للمرة الأولى، لكنني قرأت له، وأحببته، وأصبحت صديقًا لسيرة حياته وفنه، قبل أن يفجأه الموت في حادثة سيارة. أحببت كامي في كل شيء، وإن رفضت عدم إيمانه. البعد الديني — في داخلي — مما لا أستطيع تجاهله،

أو التهوين منه. قرأت له «الطاعون»، و«كاليجولا»، و«العادلون»، و«أسطورة سيزيف». وتمنيت أن أكتب — مثله — في الرواية والمسرحية والدراسة الفلسفية. كما تمنيت — عند فوزه بجائزة نوبل — أن أحصل على الجائزة العالمية يومًا. أزيد فأُصارحك بأني تركت التصور في امتداداته إلى حفل تسلُّم الجائزة. ولأني من سكان الساحل، أُحب البحر والشمس والشاطئ، فقد أعجبني للغاية قولُ كامي: «لقد نشأت في البحر، وكان الفقر بالنسبة لي ترفًا جميلًا، ثم فقدت البحر، وإذ ذاك بدَت لي جميع النعم باهتةً تافهة، والبؤس أمرًا لا يُحتمل.» وكان إعجابي بكامي يقابله رفضٌ لموقفه المتخاذل — وربما الرجعي — من الثورة الجزائرية. فقد ناهض فكرة استقلال الجزائر «علينا أن نعتبر مطالبة الجزائر بالاستقلال إحدى ظواهر الإمبريالية العربية (!) الجديدة التي تتطلع مصر إلى تزعُّمها بدافع من الغرور، والتي يستخدمها — حتى الآن — الاتحاد السوفييتي لفائدة أهدافه الاستراتيجية ضد الغرب». وكان يستخدم في حديثه إلى أبناء الجزائر كلمة «أنتم»، بينما يتحدث عن المستوطنين الفرنسيين بكلمة «نحن». وبلغ به التبجح — لا أجد تعبيرًا آخر — حد القول «إنني مؤمن بالعدالة، لكنني أدافع عن أمي — فرنسا — قبل العدالة.» وكم أثَّرَت في نفسي مقالةٌ للمناضل الجزائري الأخضر الإبراهيمي، أكَّد فيها أن كامي «سيظل — في نظرنا — كاتبًا جليل القدر، أو بالأحرى صاحب أسلوب فني ممتاز، ولكنه سيبقى إلى ذلك غريبًا عنَّا، لا صلة بيننا وبينه مطلقًا» (الهلال، سبتمبر، ١٩٧٢م).

وإذا كان فوكنر قد أعلن — يومًا — أنه يستطيع الكتابة عن قريته وهو خارجها دون توقُّف على الإطلاق، فلعلي أزعم الأمر نفسه بالنسبة لبحري: رأس التين، والأنفوشي، والسيالة، وأبي العباس، والميناء الشرقية، والبوصيري، و«الخمس فوانيس»، وغيرها. أحببت في فوكنر إخلاصه لبيئته المحدودة، والمحددة، وأحببت في أعماله تحول الحادثة البسيطة — وربما التافهة — إلى أسطورة، إلى زخم روائي يحفل بالشخوص والمواقف والأفكار والأحداث. حتى الفتاة التي تجلس فوق الشجرة، يُحيلها الفنان — بخياله ورؤاه وقراءاته وخبراته وتجاربه — روايةً تشغل مئات الصفحات!

أما سكوت فيتزجرالد، فقد أفدتُ من أسلوب عمله في جمع المعلومات التي تُعين على التفهم الأوضح للبيئة المكانية والزمانية للعمل الروائي، خاصة ذلك الذي يستدعي بعض أحداث التاريخ القديم أو المعاصر.

وأما همنجواي، فقد لاحظت أن النثر في أعماله ليس مجردَ زخارف هامشية، لكنه بناء معماري ينبض بالحيوية والفن. وكان ذلك ما أريده تمامًا، وأتوق إلى تحقيقه. كنت

أجد في نثر عبد الحليم عبد الله — على سبيل المثال — تشبيهاتٍ وكنايات وجملًا بلاغية، لكنها لا تُسهم في البناء المعماري، لا تُشكِّل عنصرًا فعالًا في العمل الفني، لا ترتبط، أو تتفاعل — عضويًّا — بالعناصر الأخرى التي يتألف منها. وأهملت ما كان يُبهرني من عبارات عبد الحليم. لم أَعُد أرجع إليها لأتأمل دلالاتها الجمالية. بدَت لي أشبهَ بالفلاشات التي تنتهي باختفائها، لا تترك أثرًا، ولا تُضيف شيئًا.

وكان أشد ما يمضُّني — لأعوام — أني كنت أقرأ عن رائعة جيمس جويس «يولسيس» دون أن يُتاحَ لي قراءتها. أحببت الوسيلة الفنية التي اختارها جويس، وتمنيت — من مجرد القراءة عنها — أن أكتب مثلها، أخلط الزمان والمكان والتصور والحدث والخاطرة، أخلط ذلك كلَّه في عمل فني.

وقد أثارَتني عبارة ديستويفسكي «كلُّنا خرجنا من معطف جوجول». وأقبلت على ما أُتيح لي قراءته من أعمال جوجول، فزاد إعجابي بهؤلاء الذين خرجوا من المعطف، قبل أن أقرأ قصة المعطف نفسها، أو أعمالًا أخرى لكاتبها. والحق أني أحببت أدب روسيا القيصرية في إطلاقه، أدب تلك الفترة المثقلة بالتمرد والثورة والإضافة والتطوير، تخرج القصة القصيرة من معطف جوجول، فيُجيد تورجنيف التعبير عن طبقة الفلاحين، ويحتوي تولستوي أمته الروسية في أدبه، ويقدم تشيكوف شخصياته البسيطة والمرهقة التي لا تُنسى، ويبشر جوركي — بنبرة عالية الرنين، ربما أشد مما ينبغي! — بدنيا جديدة، ويُفيد ديستويفسكي علم النفس أضعاف ما أفادته الأعمال الأدبية الأخرى، منذ المسرح الإغريقي إلى شكسبير، حتى الأعمال المعاصرة. باختصار، فقد كان الأدب الروسي هو المدرسة التي تعلَّم فيها معظم أبناء جيلي، سواء في الرواية أو القصة القصيرة أو المسرحية. وحين تجرأت فكتبت — لا أدري كيف — مقالًا بعنوان: «كيف تكتب قصة قصيرة؟» فإن المثل المتكامل للقصة القصيرة كان هو قصة «لمن أسرد أحزاني؟» لتشيكوف، ذلك الحوذي الذي لا يجد مَن يسرد عليه أحزانه لوفاة ابنه، ويلجأ — في النهاية — إلى جواده، يروي له القصةَ من بداياتها. كانت الطبقة الوسطى — والفقيرة أيضًا، بعكس ما يزعمه النقد — هي نبض أعمال تشيكوف، الحياة العادية البسيطة، ما ينتمي إلى الواقع الروسي، وإن تحقق له البعد الإنساني المطلق. إلى أية طبقة ينتمي حوذي تشيكوف الأشهر؟!

وأعترف أني انبهرتُ بدعوة برتراند راسل للسلام. وكانت أولى قصصي «ياسلام» تأثرًا مباشرًا بتلك الدعوة. فلما تحدد الصراع العربي الصهيوني في مقولة شكسبير الشهيرة

«نكون أو لا نكون» بدا السلام تعبيرًا عن السذاجة في مقابل الهجمة التترية العنصرية الضارية التي تسعى لاجتثاث الجنس العربي إطلاقًا. وبعد عشرين سنة من «ياسلام» كتبتُ العديد من القصص القصيرة، فضلًا عن روايتي «من أوراق أبي الطيب المتنبي» التي أكَّدت على «المقاومة» سبيلًا للتخلص من المأزق الذي نحياه.

ولعلي حين بدأت إعداد كتابي «مصر في قصص كتابها المعاصرين» كنت متأثرًا بقول بابلو نيرودا: «على كل إنسان أن يعيش في وطنه، أن يُصيخَ السمع إليه، أن يضرب بجذوره في تربته.» وقد دفعني بابلو نيرودا — تحديدًا — إلى البحث عن ناظم حكمت: «إننا نُحسَب في عداد الشعراء عندما نقف بجوار ناظم حكمت ...»

ولعلي أزعم أيضًا، أني حاولت الإفادة من آخر ما قالته فرجينيا وولف: «عمل عمل عمل. إنه آخر وصفاتي ...»

تبقى حكاية التأثير الكافكاوي على أدب الستينيات.

أُصارحك أني لم أتعرَّف — ومعظم جيلي — إلى كافكا، بصورة حقيقية، بحيث يحدث التأثير والتأثر، إلَّا من خلال ما ترجمه الدسوقي فهمي ومصطفى ماهر في أواسط الستينيات. قبل ذلك، ربما لم يقدِّم كافكا إلى العربية سوى طه حسين عندما كتب عن «المحاكمة» في الكاتب المصري. أما القول بأن أعمال كافكا كانت ميسورةَ التداول، فإن الإجابة عليه هي أن معظم مَن وجد النقاد في أدبهم ذلك التأثير، لم يكونوا يعرفون لغةً ثانية. وأذكر في مقدمتهم صديقي المتفوق محمد حافظ رجب.

كانت مكتبة المنيرة هي المكان الذي التقيتُ فيه — للمرة الأولى — بنجيب محفوظ. عرَّفني به أحمد أفندي عاكف بطل «خان الخليلي».

كنت قد قرأت للمنفلوطي، والمازني، وطه حسين، والعقاد، وتيمور، ونجوم جيل نجيب محفوظ قبل أن يخسف بهم ضياؤه: السحار، والسباعي، وغراب، وعبد الحليم عبد الله، والبدوي، وغيرهم. قلت لنفسي: هذا هو الكاتب الذي أريده. وقرأت عبث الأقدار، ورادوبيس، وكفاح طيبة، والقاهرة الجديدة، وزقاق المدق، وبداية ونهاية. أحسست بالمسافة الواسعة التي تفصل بين نجيب محفوظ وأدباء الأجيال السابقة، وأبناء جيله أيضًا. ولكن مجموعة «همس الجنون» لم تحقق — في داخلي — التأثيرَ نفسه الذي حققته رواياته. وحتى الآن، فإني أتحفظ في إبداء الإعجاب بغالبية قصص نجيب محفوظ القصيرة، بينما أجد في رواياته إضافاتٍ مهمة، لا إلى الرواية العربية وحدها — رأْي تغيب

عنه الحماسة! — ولكن إلى الرواية العالمية بعامة. روايات نجيب محفوظ هي الأقرب — بمواصفات النقد — إلى العالمية (وقد حصلت — بالمناسبة — على جائزة الدولة التشجيعية في النقد الأدبي!) أما قصصه القصيرة، فإنها تُعاني — أحيانًا — غيابَ خصائص فن القصة. وقد يغلب عليها الوعظ والمباشرة، وربما أضيف: والسذاجة أيضًا!

لم أكن أعلم أن أسلوب القراءة الذي اخترته في مكتبة المنيرة، ثم أهملته، سبقني إليه «العصامي» في «الغثيان» لسارتر، حين وهب حياته لقراءة كتب مكتبة البلدية من الألف إلى الياء. ثقَّف البطل السارتري نفسه عن طريق قضاء ساعات طويلة في القراءة بمكتبة البلدية. وهو ما حاولتُ أن أفعله — قبل أن أقرأ الغثيان — في مكتبة المنيرة. بل إني بدأت تنفيذ مشروعي للقراءة بالطريقة نفسها التي اتبعها روكتان، أقرأ كل الكتب التي تضمها المكتبة وفقًا للتسلسل الأبجدي لأسماء المؤلفين. وقد توقفَت عملية التثقيف الذاتي بالنسبة لروكتان عندما طُرد من المكتبة بتهمة تحسُّس ذراع تلميذ صغير. أما أنا، فقد طُردت من مكتبة المنيرة، وأنهيت — بالرغم مني — عملية التثقيف الذاتي، لأن أمين المكتبة ضايقَته الأحاديث الهامسة التي كنت أتبادلها وليلى أ. ع. (أهديتها أول ما أصدرت من إبداع مطبوع!) كانت تُقيم في البيت المواجه لبيت عمتي بالمنيرة، وقررنا أن تنتقل العلاقة من وراء الشرفات إلى مكان آخر، أخفقنا في تحديده، حتى تذكرت مكتبة المنيرة. لم تكن ليلى ممن يقرءون، اكتفَت بإجادة القراءة والكتابة، ثم لم تَعُد تقرأ. وحدثتها عن المكتبة والكتب وجدوى القراءة. والتقيتُ بليلى عن قرب، لأول مرة. لم يَعُد يفصل بيننا شارع — هو المواردي — وزقاق متفرع منه — لا أذكر اسمه الآن — ينتهي إلى شرفة ذات مشربية كانت ليلى تُطِل منها، بينما كنت أقف لأحادثها داخل شرفة في شقة عمتي، أوارب الشيش، فلا يراني — ما عداها — أحد. لاحظ أمين المكتبة أحاديثنا الهامسة، وأننا لا نقرأ كتابي الاستعارة. اقترب مني — بتأدب — وقال في أُذُني بصوت هامس:

– المكتبة للقراءة لا لتبادل الأحاديث!

وقررنا — ليلى وأنا — أن نلتقيَ في أماكن أخرى. ولم أَعُد — لخجلي — أتردَّد على المكتبة.

أفدتُ من ابن عمٍّ لأبي، الصحفي محمد عوض جبريل، دون أن ألتقيَ به. مات وأنا طفل، فلم أتعرَّف إليه إلَّا في صورة معلقة على جدار بيته حين زرته مع عمتي في إجازات الصيف.

أَذِنت لي أرملتُه — فاطمة هانم — بالاطلاع على مكتبته. وكانت مكتبة ثرية بالفعل، غاب عنها التخصص لأن معظم ما حوَته كان إهداءات من المؤلفين لصحفي مرموق!

وأحببتُ السِّيَر الأدبية والشخصية للمازني وأحمد أمين وزكي نجيب محمود وغيرهم. فلما قرأت — فيما بعد — اعترافاتِ جان جاك روسو، بدَت مغايرةً لكل ما قرأته في أدب السيرة، وهزَّتني هزًّا عنيفًا.

وقرأت عن بيرم التونسي، منذ مولده بالإسكندرية في ١٨٩٣م، وتعلُّمه في الكُتَّاب، وفي قراءات المكتبات العامة، وعلى أيدي المثقفين، واشتغاله بالعديد من الحِرَف: بيع الخضر والسمن، والصيد، ونفوره من صناعة الهوادج، وكتاباته الزجلية الباكرة، وأولى قصائده: المجلس البلدي، فإصدار المسلة: لا جريدة ولا مجلة، والخازوق. ثم النفي من مصر، والعودة بالتخفِّي، والنفي — ثانيةً — بعد العثور عليه. ومع أني كنت أعلم أن جامع أبي العباس قد أُعيد بناؤه في منتصف الأربعينيات، بل إني أذكر الصور غير الواضحة التي تنتسب لأعوام الطفولة، لعمليات البناء: الرمال، والطوب الأحمر، وخلطة الأسمنت، والفواعلية، وهيلا ليصة … صور لا تتصل بما قبل ولا بعد كطبيعة ذكريات الطفولة، حين يلفُّها الضباب، وتبدو غيرَ متصلة. مع ذلك، فإني كنت — أثناء مذاكرتي في صحن أبي العباس — أتخيَّل الأماكن التي ربما تلقَّى فيها بيرم التونسي تعليمَه عندما كان أبو العباس مقرًّا للمعهد الديني.

وقرأت الترجمة العربية للمجلدات الأولى في موسوعة أرنولد توينبي الثرية «دراسة التاريخ». لم تكن ترجمات كاملة، لكنها وافيةٌ بحيث استطعت — من خلالها — أن أتعرَّف إلى فكر توينبي. وبالتحديد: نظرته إلى الحضارات وأصولها، ميلادها وارتقائها وذوائها، فموتها! أخضع توينبي تطور الحضارات لمنهج تجريبي، أثبت من خلاله أن الحضارات لا تُفهم إلَّا في إطار النمط الدوري. الكائن الحي الذي يمرُّ بكل مراحل الحياة، بدءًا بالميلاد، وانتهاءً بالموت. الحضارة تولد وتنمو حتى تصل إلى ذروة قوتها، قبل أن تشيخ وتموت. ليست الحضارة الإنسانية وحدها، وإنما كل ما هو إنساني. حتى أبي لم يَعُد هو ذلك الأب القديم بحيويته وفتوَّته. بدأت «حضارته» في الذواء. وأذكر أني سألت نفسي وأنا أناقش فكرةَ توينبي في بواعث حضارة الغرب وذوائها: هل تصادف حضارة الغرب ما ذهب إليه توينبي في فكرته؟ … هل تشهد الانحلال الذي توقَّعه لها توينبي، فتتحقق الحتمية التاريخية، رغم الحلول التي وضعها توينبي نفسه، لإنقاذ تلك الحضارة مما يتهددها؟!

وأثناء انشغالي بإتمام الجزأين الثاني والثالث من كتابي «مصر في قصص كتابها المعاصرين» — عقب صدور الجزء الأول في ١٩٧٢م — دلَّني صديقي الدكتور رفعت السعيد على مصدر لم أكن تنبهت إليه، هو عصام الدين حفني ناصف. فلما أتاحَت لي أرملتُه أن أقرأ كُتُبَه، وأقلِّب في أوراقه، كان ذلك بدايةَ تعرُّفي — وإن جاء متأخرًا — إلى عالمٍ خصبٍ وثريٍّ لواحد من أساتذتي الأساسيِّين. أزعجتني — في البداية — أوراقُه المسرفة في الإلحاد، إلى حدِّ أنه وضع النكات والقصائد الساخرة التي تتناول الذات الإلهية. مولدي ونشأتي بالقرب من أبي العباس والبوصيري وعلي تمراز، وأدائي للفرائض في سنٍّ باكرة، وتواصل حياتي في أجواء قريبة من الدين، أو لصيقة به ... ذلك كلُّه جعل كتاباتِ عصام الدين حفني ناصف الملحدة أشبهَ بالصدمة. زاد من وَقْعها أنها كانت أولَ ما طالعَته عيناي في أوراقه. لكن العالم الحقيقي للرجل ما لبث أن توضَّح في كتابات تكفل له مكانةً متفوقة بين مفكري عصره وأدبائه، وربما بين القيادات الاجتماعية والسياسية لذلك العصر.

يسأله المحقق في إحدى قضايا الرأي: تُشير في كتاباتك إلى الأموال التي تُصرف في إسراف مخيف، وتكفي لتحسين حالة الفلاح لحد ما ... فماذا تقصد من ذلك؟

يُجيب: أريد مثلًا، الأموال التي تُنفق على الزينة في أعياد جلالة الملك، ولا يستفيد منها غيرُ أصحاب محلات الكهرباء والأجانب وغير ذلك حاجات كثيرة جدًّا. فالأغنياء مثلًا يشترون الماسات، ويُقيمون الأفراح ونحو ذلك. ومثال ذلك أيضًا، البرنس يوسف كمال، عنده ٤٠ كلبًا للصيد يذبح لها خرفانًا مخصوصة، بينما الفلاحون في أرضه لا يأكلون غير المش، وهو وغيره يحجزون على أملاك الفلاحين إذا خسرت الزراعة.

أما الكتاب، فهو «التجديد الاجتماعي». أصدره عصام الدين حفني ناصف في ١٩٣٠م. ولخطورة ما ورد في الكتاب من أفكار قدَّمت حكومةُ إسماعيل صدقي مؤلِّفَه إلى المحاكمة. كان رأْي عصام ناصف أن «الفلاح يزرع، فيجب أن يحصد. الفلاح هو المنتِج، فيجب أن يكون هو المتمتع». وقد تقلَّب الرجل بين أكثر من حزب سياسي، لكنه احتفظ دائمًا بأفكاره المناهضة للاستعمار والرجعية والإقطاع والرأسمالية الاحتكارية. وتوضَّحت أفكارُه وما يدعو إليه عندما مارس الكتابة الأدبية والدينية والسياسية. قدَّم كتاب «النشوء والارتقاء» لداروين، تأكيدًا لحتمية انتصار العلم على المنطلقات السلفية والنقلية. ثم ترجم قصة تولستوي «النور يُضيء في الظلام»، وترجم لديستويفسكي «الزوج الأبدي»، ثم انصرف — فيما يُشبه التفرغ — للكتابة عن الاشتراكية. وبلغ ما

أصدره ٢٣ كتابًا، بالإضافة إلى عشرات الدراسات والمقالات في الصحف. ومما أعتزُّ به، تلك الأوراق التي سجَّل فيها بعضَ خواطره وأفكاره، والتي ما زلتُ أحتفظ بها، بمبادرة سخية من أرملته.

ولأني — منذ بدايات حياتي العملية — كنت أُعاني ضآلة المرتب، بحيث بدا شراء الكتاب، وربما المجلة، عبئًا لا أقوى على تحمُّلِه، ولأني انصرفتُ أعوامًا تزيد عن السبع، لتأليف كتابي «مصر في قصص كتابها المعاصرين» فقد تحدَّدَت مواردي في المكافأة التي كنت أتقاضاها من جريدة «المساء»، والتي أُنقصَت — للغرابة — بعد أن تمَّ تعييني، وصارت مرتَّبًا، يصعب — والتعبير لصديقي الراحل فاروق منيب — أن تُطعم قطة!

أُصارحك بأن ذلك الوضع المادي المأزوم لم يشهد انفراجة، إلَّا حين أقنعني أستاذي عبد المنعم الصاوي وصديقي صلاح الدين حافظ بالسفر في رحلة عمل إلى سلطنة عمان، توليت أثناءها إصدارَ جريدة «الوطن»، وهو ما رويته — بإفاضة — في سلسلة مقالات نشرَتها مجلة «الدراسات الإعلامية». أعود إلى الأجندات الصغيرة التي كنت أسجِّل فيها — أحيانًا — بعض الملاحظات. الملاحظة التي لم تتغير في كل افتتاح لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، أن مرتَّبي لم يكن يأذن لي بشراء الكتب التي أريدها. حاولت — في أعوام الحصار المادي، كم كانت طويلة! — أن أُفيدَ من مكتبات أصدقائي. أتاحوا لي قراءةَ ما تضمُّه مكتباتهم. وزاد البعض — مثل يحيى حقي ونجيب محفوظ ومحمود تيمور وثروت أباظة — فأهدوني النسخ المكررة مما بحوزتهم من الكتب. ولما شغلني البحث عن مراجع ومصادر لكتابي «مصر في قصص كُتَّابها المعاصرين» أفسح لي صديقي محمد فهيم شلتوت مكتبَه في دار الكتب لقراءة كل ما أطلبه. كما أفدت من مكتبة الدومينكان بالعباسية. صداقة الأب جاك جومييه وفَّرت لي مراجعَ، بعضها لم يكن في قوائم دار الكتب.

هنـــداوي